تجليات أدبية

شريف حتاتة

إبنة القومندان

ميريت

شريف حتاتة

إبنة القومندان

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠٠٨

إبنة القومندان

رواية

شريف حتاتة

الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٣٥٧٠

الترقيم الدولي: 977-351-408-0

لا أعرف إن كانت هذه رواية أو مسرحية أو أحلام
جاءتنى وأنا في معتقل الواحات.

إهداء

إلى المرأة التى جعلتني امسك بالقلم ... نوال السعداوى

الفصل الأول

جاءوا فى بداية النهار قبل أن تشرق الشمس. كانت البيوت لا تزال نائمة، والشوارع غارقة فى الصمت. وقف فى الحديقة الصغيرة يروى الزهور قبل أن ترتفع حرارة الجو. أحاطوا به كالفيضان الأسود وأخذوه. قبل أن يذهب معهم التفت وراءه. لمح الزهور تَحنى رؤوسها في حزن.

حملوه في البوكس ومن خلفه شاحنات الجند ولما وصلوا إلى "القلعة" وضعوه في قبو. في النهار يصل إليه شعاع واهن من الضوء، وفى الليل يلفه الظلام فلا يرى شيئاً ولا يصل إليه صوت. أصبح كالأعمى يرى باللمس.

ثلاث مرات في اليوم يفتحون عليه الباب ليضعوا له الفول، والماء، والخبز، وليغيروا جردل البول. حاصره الإحساس بالموت، فقاومه بالذكريات، بالطفولة كأنه عاشها بالأمس ، برائحة الأرض عند شاطئ الترعة، ورعشة القمر على سطح المياه، بصوت الساقية تدور ، وبضحكة أمه عندما تنام فى الفراش ويغازلها أبوه ، ببيوت العزبة والغيطان خضراء اللون.

عندما غاب عنها كان يحضر فى الأجازات. يتوقف عند الساقية تحت أشجار الكافور ليعرض وجهه لرذاذ المياه ويتأمل العزبة عن بعد. يخلع حذاءه قبل أن يهبط إلى المدق فتستعيد قدماه ملمس الأرض. يراهما تتنقلان فوقها كالفراشتين، فيرتعش بفرحة قديمة وهو راقد في القبو.

في منتصف المسافة كانت تلتقى قناة الرى الممتدة بالطول بقناة للرى ممتدة بالعرض لتصب المياه فى ماسورة تحت الأرض، وتخرج منها فتصنع بركة يغسل فيها النساء ما يحتاج إلى الغسل. تحضرن إليها حاملات الملابس، والأوانى، والحصر، وسلال القمح. تقرفصن تحت شجرة الجميز، وتنهمكن فى الثرثرة، والدعك، والشطف. تفحصه العيون عندما يمر على مقربة منهن فى صمت ثم تطلقن موجات من الضحك ترتفع خلف ظهره بعد أن يبتعد عنهن. تسبح وجوههن حوله فى ظلام الزنزانة ويرى عينى أمه تبرق فى ضوء الشمس كأنها جالسة معهن تنتظر مجيئه. أنفها حاد وقوامها المرتفع يتحرك بجاذبية أنثوية ليس فيها ضعف. يتتبع يديها القويتين الجميلتين تبطتان أقراص الخبز قبل أن تدفع بها فى جوف الفرن.

مات أبوه وهو صبى صغير. أحيانا يتذكره بوضوح، وأحيانا يتوارى كالشبح فى قصة من قصص السندباد. يختفى خلف ظلال كثيفة ثم فجأة يلمحه وهو يغطس فى الترعة، فيصدمه بياض الجسم القوى تعود أن تتكشف فقط أجزاؤه المحروقة فى الشمس. يصدح صوته بالغناء فى الغيط ثم يصمت فجأة وينقلب الصفاء

العسلى فى عينيه إلى عكارة فيدرك أن موجة من الحزن أو الغضب استولت عليه.

كان يصطحبه معه فى كل مكان. يجلس كالعصفور على الزحافة تجرها الدابتان. يفتل معه حبال التيل المربوطة فى الأصبع الكبير لقدمه ، أو يرقد إلى جواره تحت الشجر بعد أن يتناولا "زوادة" من المش والبصل والخبز. صوته العميق وهو يقرأ فى المصحف يصل إليه. ينصت إلى الكلمات ترتفع فى سكون الليل كأن إيقاعها يجعل الأشياء المضطربة تستقر. كان الناس يقولون عن "محمد عميرة" أنه صاحب شهامة وكرم يفى بوعده. قهرته السنين تحت ثقل فدانين كان يزرعهما فى أسرة لم تنجب إلا ولدا أصر أن يفرغه للدراسة حتى لا تظل قدماه مغروستين فى الطين. لجأ إلى العمل فى ورش الطوب استنزفت قواه ، وفى ليلة من ليالى الصيف انفجر شريان فى رأسه. كان يقرأ فى المصحف. انكفأ على وجهه فجأة، وصمت. أمدوا الجسد الكبير فوق حصيرة وظل بلا حركة ما عدا عضلة صغيرة كانت تنبض فى عنقه.

لم يترك له نقودا، أو عقارا أو أرضا. ترك له فقط مصحفا، ومسبحة، وحبا للنغم، وتمردا غرسه فيه مبكرا. يوم أن غادر العزبة دفن المصحف والمسبحة تحت شجرة الجميز، وحمل معه كراسة صغيرة زرقاء اللون كتب فيها أبياتا من الشعر.

* * *

عندما ساءت حالته أخرجوه من القبو. أصبح جسمه جلدا على عظم فحقنوه بالسوائل المغذية، وبعد أسبوع أصبح قادرا على هضم الحساء والخضروات المهروسة. كانت بنيته قوية فاستعاد قدرته على المشي، واكتست عظامه باللحم.

لم يريدوا له أن يموت. تحدثت وسائل الإعلام عنه فى الخارج ، وتمكن أحد الصحفيين من تصويره يوم أن أخرجوه من القبو ثم أعطى الصور لوكالة رويترز لتقوم بنشرها.

فى ذلك الوقت كان حاكم البلاد يستعد لولاية سادسة وأراد أن يغير الوجوه التى أحاطت به بعد أن فاحت رائحة فسادها. أحضر فريقا من جراحى التجميل لتغيير ملامحهم بحيث يبدون أكثر شبابا، وأكثر قدرة على تسويق ما تبقى فى البلاد ولم يتم تسويقه. ومن بين الإجراءات التى أقدم عليها لإصلاح الوضع أصدر قرارا بنفيه فى الصحراء.

قبل أن يقوموا بترحيله اقترح مستشار الأمن القومى توظيف قلمه فى جهود الإصلاح فابتاعوا له سترة صيفية أنيقة بنصف كم، وبنطالا من "الجبردين" الخفيف، وحذاءا من الجلد، وجرابا سمنى اللون، وملابس داخلية جديدة من محل كان يملكه ابن مستشار الأمن. ألبسوه الثياب الجديدة، والتقطوا له صورا وهو جالس على مكتب وفوق رأسه صورة الحاكم، ثم أركبوه فى البوكس، ومن خلفه شاحنات ثلاث تطل من قضبانها وجوه الجند. توقفوا عند بوابة حديدية، وأنزلوه من البوكس. عند الباب كان يقف عدد من الحّراس، أحدهم أبيض، والباقون من السود. كانوا يرتدون ملابس

الميدان، ويمسكون بمدافع قصيرة داكنة اللون. أحس بعيون تتبعه مختبئة خلف السواتر، أو فوق الأشجار، أو داخل تمثال النهضة كان يتوسط الميدان الصغير الذى تجمعت فيه سيارات "المرسيدس" ومن حولها السائقون يثرثرون، ويدخنون اللفائف.

عبروا به الميدان، وصعدوا فوق درجات من الرخام. توقفوا أمام باب من الخشب السميك. ضغط أحدهم على زر ونطق ببضع كلمات فانفتح الباب ليدخلوا بهوا عريضا فيه أوان من النحاس، وشجيرات ، ومقاعد من الجلد. فكوا من حول يديه القيود ثم أمسك اثنان منهم بذراعيه وتوجها به إلى قفص من الزجاج والحديد ارتفع ببطء فى المبنى إلى الدور العاشر. أخذ يتأمل الوجهين الجامدين، والعيون تختفى خلف النظارات السود،و الأحذية المدببة الطويلة والأصابع قصيرة تدور بينهما حبات السبحة. تحدث أحدهم فى التليفون المحمول أخرجه من جراب أعلى البنطال وبعدها انفتح باب القفص وساروا فى دهليز طويل عند آخره باب عريض مبطن بالجوخ. أحس مرة أخرى بعيون تفحصه ثم ارتفع جزء من الباب تاركاً فتحة دخلوا منها إلى حجرة كبيرة ساروا فيها مسافة ليجد نفسه أمام مكتب جلس خلفه رجل حليق الرأس له لحية مدببة صغيرة. كان يتحدث فى إحدى أجهزة التليفون الموضوعة على رف إلى جواره. أدى الرجلان التحية ثم انسحبا إلى آخر الغرفة ووقفا إلى جوار الباب.

حملق فيه الرجل الجالس خلف المكتب وهو ممسك بسماعة التليفون ثم همس فيها. "حاتصل بيك بعدين"، وأعادها إلى مكانها. أخرج سيجارة من علبة خشبية أشعلها. نفث خيطا من الدخان، ثم أخذ يخاطبه بصوت رتيب : .

"أنت تعلم أن البلاد مقدمة على مرحلة جديدة. لم يعد واردا أن تستمر الأمور كما هى. التغيير هو السبيل الوحيد لضمان الاستقرار، لمواجهة المشاكل التى تراكمت منذ سنين ولإفساح المجال أمام مشاركة الشعب. هناك حاجة إلى فتح أبواب المسئوليات أمام العقول الشابة المستوعبة لحقائق العصر. أنت صاحب موهبة ومقدرة على مخاطبة الناس فلماذا تقبل أن تقضى حياتك فى الظل ؟ أن تكتب على قصاصات من الورق لا يقرأها أحد ؟ فكر جيدا يا "حمدان". يمكننا أن نعطيك بابا فى أكبر صحيفة لتكتب فيه ما تشاء. يمكنك أن تشق طريقك إلى أعلى المستويات. هذا إذا كنت عاقلا قادرا على إدراك الحقائق، على التخلص من الأوهام، راغبا فى أن تساهم بجهدك فى الإصلاح".

أحس بالغرفة تموج من حوله، بوجه الرجل يتحول إلى وجه بهلوان ، بحاجبيه مقوستين، ببشرته بيضاء كالطباشير ، بلحيته تزحف نحوه بالتدريج فاستولت عليه رغبة جنونية. مال على المكتب وفى حركة سريعة مد يده وأمسك بها. شد عليها بقوة فانتزع منها بضعة شعيرات وانطلقت منه الضحكات. انتصب الرجل واقفا، صارخا بأعلى صوت. "خذوه، خذوه ده مجنون. طلعوه بره. طلعوه بره" فاندفع الرجلان الواقفان عند الباب،

وأمسكا به. جراه بسرعة إلى الغرفة المجاورة كان يجلس فيها مدير المكتب. قفز واقفا فاندلق على بنطاله قدحا من "النيسكافيه"، وطار طبق من زيت الزيتون والزعتر لينقلب على ملف "حمدان محمد عميرة" أعاده إليه مستشار الأمن فى الصباح.

حملاه حتى البوكس المنتظر فى الميدان. كان لا يزال يضحك بصوت مبتهج رنان، فالتف الناس حولهم واضطر البوليس إلى تفريقهم بالغازات المسيلة للدموع والهروات ثم انطلقوا به إلى المركز وهناك ضربوه إلى أن أصبح جسمه كتلة من اللحم الأزرق اللون.

* * *

القطار يزحف كالدودة فوق رمال الصحراء. تتلوى عرباته كالفقرات، محروقة فى الشمس، مصبوغة بلون التفل، مضروبة بكرابيج الريح. الحراس يجلسون إلى جواره. مع كل هزة فى القطار يميلون عليه بثقلهم. يشعر بعظامهم البارزة من تحت الثياب، وبمدافعهم تنغرس مواسيرها فى لحمه مازال يؤلمه من الضربات، بأنفاسهم العفنة، ورائحة ضراتهم تتسلل إليه.

الناس من حولهم غائبون، تائهون فى المسافات. عيونهم مغلقة فى شىء كالسبات. عيناه هو مفتوحتين تتأملان الناس، والصحراء. فى أذنيه حركة العجلات، وصوت قنابل انشطارية، وصراخ أطفال بطونهم ممزقة، وأغان، وهتافات، وأنين، وهمس الريح فى أشجار الكازوارينا، وترباس باب يغلق عليه.

بين الحين والحين ينظر من النافذة. يرى الخضرة تمتد على الرمال. يرى الذرة، والقمح، والبرسيم، وأعواد العنب تصعد على الأسلاك. يرى مدرسة مبنية بالطوب الحرارى، وطفلة تخرج من الباب، وماء أزرق اللون متلألئ يتدفق من بئر فى قناة مبطنة بالأسمنت.

تمر الساعات. استولى عليه التعب. الأشياء تصل إليه مغيمة. فى لحظة يشعر أنهم هبطوا به من القطار وأركبوه فى شىء يقفز فوق الرمال كالحصان. يغلق عينيه، وينام. صوت أمه الرنان يوقظه. عندما يفتح جفونه تختفى ليحل محلها العسكر يتطلعون إلى الأمام بنظرة توقع، نظرة فيها شىء يوحى بنهاية الرحلة، براحة البدن، وكوب من الشاى، ومرتبة. ضوء الفجر يزحف على الرمال تبدو كالبحر الشاحب. يعود إلى النوم. يرى نفسه واقفا على سلم يكتب على جدار عال "نعم للحب، لا للحرب"، ثم فجأة يشعر بأن السيارة "الجيب" توقفت ، بأنه يسقط، بقدميه تنتقلان فوق رمال تعلو وتهبط ، بأنه يتقدم نحو سور من الأسلاك الشائكة يقف عنده رجل طويل القامة صغير الرأس يرتدى قبعة وبزة كاكية اللون ، بأياد تفك قيوده، بأصابع تتلمس أعضاء جسمه، تندس تحت ثيابه، في جيوبه، تحت لسانه ، حول فتحة الشرج ، برجل يرتدى معطفاً أبيض يضع سماعة على صدره، وبرجال آخرين يفحصون عينيه وأذنيه فى ضوء كشاف.

جعلوه يخلع حذاءه ثم أمروه بارتدائه. ساروا به بين صفين من الخيام. رفعوا ستارة ثقيلة من القماش فأحنى رأسه بحركة آلية

ليدخل. أسقط كيس ملابسه على الأرض ورقد مسندا رأسه عليه. ظل دون حركة كأن الكون ربض فوق جسمه ، وفجأة سقط عقله فى الظلام.

* * *

أسند جسمه على المرفق. ثم وضع كف يده على الأرض ووقف. ساقاه ترتخيان من تحته كأنهما جوربان طويلان محشوان بالقطن. امتدت ذراع ولفت نفسها حول خصره لتصلب عوده، فالتفت ليجد شاباً أسمر البشرة، حاد الملامح يقف بجواره. كان يرتدى قميصا واسعا يكشف عن جزء من صدره. فى الخيمة عدد من الرجال أخذت وجوههم تتهادى حوله بحركة بطيئة متأرجحة. أدرك أن معدته خاوية فبذل جهدا ليتماسك. بين الواقفين لمح رجلاً قصير القامة تبرز أذناه الكبيرتان على جانبى رأسه. كان يحمل معه حقيبة سوداء. سأله بصوت نبراته رفيعة، متوترة.

"اسمك أيه؟"

قال :

"حمدان محمد عميرة ". اسم الأستاذ إيه؟"

نظر إليه نظرة طويلة فاحصة قبل أن يجيب.

"أنا المشرف العام على نزلاء معهد التهذيب والإصلاح. سنحدد لك مكانا فى خيام الوارد". ثم أنصرف بخطوة سريعة متجها إلى مجموعة من الأكشاك المبنية بالطوب الحرارى فوق قواعد من الأسمنت.

أحس بالشاب يسحب ذراعه من حول خصره. ومضت أسنانه في ابتسامة مشجعة ثم قال :

"سأحضر لك خبزا من الفرن، وقطعة من الجبن وسأصنع لك كوبا من الشاى. خيمة الوارد هى آخر خيمة فى الصف الأول القريب من السور الأمامى. يمكنك أن تستريح هناك".

انصرف تاركاً الآخرين دون أن يلتفت إليهم. ظلوا واقفين فى مكانهم كأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون ثم جلسوا على الألواح الخشبية المعدة للنوم، واستغرقوا فى إعداد لفائف من التبغ وتدخينها فى صمت. أحس بالغثيان من رائحة الدخان فرفع كيس ملابسه عن الأرض ، وخرج ليبحث عن خيمة الوارد. صدمه الضوء الأبيض المنعكس من مساحات الصحراء فأغلق عينيه لحظة ثم فتحهما وألقى بنظراته حول المكان فرأى مساحة من الرمل واسعة محاطة بالأسلاك الشائكة، وصفوفاً من الخيام رمادية اللون أحجامها متساوية ، ما عدا صوان كبير، وصف من الأكشاك انتصبت على مقربة من الباب وقف حولها عدد من الحراس.

سار على قدميه الحافيتين. الرمل ساخن يلسع بطنهما والشمس حارقة تهبط أشعاتها على رأسه من سماء باهتة. عاد صبياً تبحث عيناه في شجيرات القطن عن اللطع تلتصق بأوراقها. على رأسه يرتدى قبعة. يرفع طرفها ليصوب نظراته إلى إبنة مقاول الأنفار انتظرها فى أحد الأيام وهى تغادر المدرسة. سار خلفها وعندما أصبحا وحدهما على الطريق الممتد قرب شاطئ

الترعة تحدث إليها. أراد أن يقول لها أنها جميلة لكنه عجز. نظرت إليه بعينيها الواسعتين كأنها أدركت ما يريد أن يقوله. توقفا تحت شجرة صفصاف أخفتهما بفروعها المائلة. كانت الشمس غاربة فتحولت الحقول بالتدريج إلى ظلال زرقاء. مدت يدها إلى خده ولمسته بحركة مرتبكة، ثم انطلقت تجرى نحو دارها، وظل هو على الشاطئ، تتنازعه المشاعر.

لم يعرف من الذى لمحهما سائرين على الشاطئ، لكن كثر الكلام فى العزبة. عندئذ قرر خاله إبعاده وإلحاقه بمدرسة ثانوية فى "طنطا". فى أحد الليالى سمعه وهو يتحدث مع أمه ويقول : "هذا الولد شيطان. ماله ومال بنات الناس. الراجل أبوها "شيخ منصر". يوم أن شكا لى أحسست أنه يدبر له شيئاً، أنه لن يتركه لحاله. جمدى قلبك واتركيه يذهب. ربما فى رحيله من هذه الحياة الضنك خير له".

هكذا بدأت مرحلة جديدة فى حياته. سكن مع قريبهم "الشيخ حمزة" خلف محطة المياه. رجل عجوز كاد أن يفقد بصره وأصبح يعيش وحده بعد أن ماتت أخته العانس ففرح عندما أتوا إليه بالغلام ليساعده فى قضاء حاجاته.

فى " طنطا " أحس بوطأة المدينة والوحدة بين آلاف الناس. لكن فيها كتب أبياتاً من الشعر احتفظ بها فى كراسته الزرقاء. عندما يقرأ ماكتبه فى تلك الأيام يضحك ، لكن أحياناً يتوقف أمام الصور، أمام الخامة البريئة لم تفسدها الصنعة. يهمس صوت فى أعماقه قائلاً : "هذا من أجمل ما كتبت"، وتتملكه غصة فى حلقه.

الفصل الثانى

ولد "مصطفى عبد الشكور الحناوى" وشهرته "مصطفى الحناوى" ليلة ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ فى أسرة من "شبين الكوم" متوسطة الحال. كانت لا تزال نيران حريق القاهرة مشتعلة فى السماء عندما استقبل الطبيب رأسه بين كفيه وهو يتساءل إن كان سيستطيع قيادة سيارته عبر الشوارع عائدا إلى البيت.

كان جد "مصطفى الحناوى" طبيباً من الجيل القديم مسئولا عن مكافحة الأوبئة أيام الاحتلال. فى ذلك الوقت كان يقوم بالإشراف على الشئون الصحية ديوان يتبع نظارة الأمن العام. أما أبوه فقد تخرج من كلية البوليس وترقى ثم أصبح محافظاً فى أسوان قبل أن يحال إلى المعاش. اختار أغلب رجال الأسرة مهنة فى الحياة لها علاقة بالأمن فالذين خانهم الحظ عملوا مخبرين، أو مرشدين أو حراساً، أو خفراء أو رجال بوليس عاديين، والذين نالوا قسطاً من التعليم أصبحوا ضباط بوليس أو مباحث ترك أغلبهم الخدمة وهم لواءات ليفتحوا مكاتب للتصدير والاستيراد، أو شركات للأمن الخاص.

سار "مصطفى الحناوى" على خط الأسلاف. سألوه فى يوم ما وهو صبى صغير "حتدخل آنى كلية ياشاطر"؟ فأجاب دون تردد "كلية البوليس". وفيما بعد نفذ هذا القرار رغم حصوله فى الثانوية العامة على أعلى الدرجات.

بعد أن تخرج صعد بسرعة ليتولى أهم المسئوليات، وقبل أن يتعدى سن الخمسين أصبح رئيس الشبكة المركزية للمعلومات وأحد أفراد القلة المنوط بها السهر على حماية الأمن ، وضمان الاستقرار.

كانت البلاد تمر بمرحلة حرجة أظهر فيها "مصطفى الحناوى" كفاءة نادرة فى تصفية العناصر المناهضة للنظام. كان يطاردهم ليل نهار. إذا نام يحلم بمحاصرتهم، بالأجهزة التى تستأنس عقولهم، وتلوى ألسنتهم، بأساليب الاستجواب، وتحطيم المعنويات أو بالبرامج المستحدثة فى تدريب الكلاب.

كان يملك مكتبة تحتوى على مجموعة كبيرة ونادرة من الشرائط، والدسكات، والمعلومات المختزنة على الميكروفيلم تتعلق بنشاطهم يحتفظ بها فى مخبأ خاص. وكان خبيرا فى وسائل الإعلام، وأساليب الإقناع، فى القمع الفردى والجماعى، فى تفكيك الجماعات وتحطيم حركات التظاهر، أو الإضراب أو العصيان، وفى تجنيد الكفاءات الملائمة للعمل، فى الاستخبار، والتتبع، والإرشاد كما كان متعمقاً فى تاريخ الحركات السياسية الثورية التى نشأت فى مختلف البلاد.

هكذا على امتداد السنين أشرف على تكوين جهاز متغلغل فى طول البلاد وعرضها فأصبحت سطوته خطيرة يعتمد عليها فى الحفاظ على النظام، وحمايته فى الأزمات. أصبح هذا الرجل المشدود الجسد والملامح مرهوب الجانب من كل الناس تنخفض الأصوات عندما يدخل أى مكان.

مع ذلك جاء اليوم الذى سقط فيه من عليائه. ففى بلاد تتركز فيها السلطة فى ايدى فرد يظل حتى المتربعون على المسئوليات المهمة مثل السائرين على حبل البهلوان. وعندما سقط لم يقف معه أحد أو حتى يبكيه سوى الكلاب التى دربها، وأغدق عليها من المصاريف السرية التى يختص بها المسئولون أمثاله.

ففى ليلة من ليالى شهر أغسطس الحارة داهمت فرقته الخاصة أحد القصور المطلة على النيل وحاصرت مجموعة من الأشخاص كانوا مجتمعين فى حجرة الجلوس. كانت قد وصلته معلومات بأن المجتمعين يعدون سرا لإحداث تغيير فى الحكم أثناء غياب الحاكم فى إحدى رحلاته لصيد الغزال. لكن مالم يكن يعلمه "مصطفى الحناوى" هو أن الحاكم نفسه كان على علم بما يدور ، أن الاجتماع رتب له بمعرفته لجس نبض بعض الأشخاص المهمين المتصلين بجهات عالمية كبرى ، ومعرفة اتجاه، وسرعة التغييرات التى يمكن الإقدام عليها.

فوجئ رئيس القوة التى داهمت القصر بشخصية نائب الحاكم بين الموجودين. فانسحب برجاله على الفور معبرا عن اعتذاره للخطأ الذى وقع فيه.

في اليوم التالي حضر "مصطفى الحناوى" إلى مكتبه كالمعتاد. كانت الساعة المعلقة على الجدار فى البهو العريض تدق التاسعة عندما اجتازت قدمه عتبة الباب الخشبي الداكن الذى يقود إليه ليستقل المصعد المصنوع من الزجاج المقاوم للرصاص والمقوى بالحديد.

سلمه مدير مكتبه مظروفاً مغلقاً مكتوب عليه "شخصي وسرى للغاية"، وانسحب مغلقاً الباب وراءه. فتح المظروف وقرأ الخطاب الذى كان مطويا فيه. ظل جالساً دون حركة لمدة دقيقة ثم وقف. أغلق السترة حول جسمه النحيل المشدود. فتح باب مكتبه وسار فى الممر الطويل اختفى منه الحراس الواقفين فيه على غير العادة. هبط على السلم إلى الميدان الصغير المحاط بالأسوار وأبراج المراقبة. صرف سائق السيارة "المرسيدس" الخاصة به فوجىء عندما وجده واقفاً أمامه، ثم عبر الميدان إلى الشارع خارجا من الباب الحديدى، وأوقف سيارة للأجرة حملته إلى البيت وفى جيبه خطاب النقل إلى جنوب الصحراء الغربية على بعد قليل من "طريق الأربعين" ليعمل "كومندانا" "لمعهد التهذيب والإصلاح".

. كانت فى حياة "مصطفى الحناوى" ظروف خاصة لم يكن يعلم بها إلا القليلون. ماتت زوجته بعد أن انتقلا إلى البيت الذى أقامه على "ترعة المريوطية". تركت له طفلة وحيدة لم تنجب غيرها كان عمرها يوم أن توفيت أمها خمس سنين وثلاثة شهور، فكبرت البنت فى بيت أبيها.. تخرجت من إحدى المدارس

النموذجية ثم التحقت بأكاديمية الفنون لتدرس الموسيقى، وبعد سنوات قليلة من إتمام دراستها أصبحت عازفة الكمان الثانية فى فرقة الأوبرا السمفونية.

كانت امرأة شابة جميلة، وإن اختلفت الآراء حول هذه الحقيقة وعلى الأخص كما هى العادة آراء النساء. ففى إحدى الليالى قالت زوجة مساعد "مصطفى الحناوى" أثناء دعوة على العشاء فى بيتها أن البنت لها ضب، وأنها لا تفهم لماذا يصفونها بأنها جميلة ، كما أن أنفها يرتعش عندما تعزف على الكمان فتبدو كالأرنب "المسلوخ". اصفر وجه زوجها ضابط البوليس وانفجر فيها قائلاً "والله لو قلتى كلام زى ده مرة ثانية لاحلف عليكى يمين الطلاق. عايزة تودينا فى داهية؟ ما تتعلمى تمسكى لسانك اللى طالع نازل زى المنشار".

كانت علاقة الفتاة بأبيها مثل علاقة القطبين المتنافرين توجد بينهما جاذبية. هو صياد شغفه فى الحياة الإيقاع بضحاياه ومشاهدتهم خلال فاصل من الزجاج لاتستطيع أن تخترقه النظرات من الجانب الآخر وهم معلقين من السقف بأقدامهم. لكن معها كان يصبح إنسانا آخر يعاملها برقة شديدة كأنه بعد أن فقد الزوجة يخشى أن يفقد الإبنة التى تركتها وراءها.

أما "كريمة" فكان عالمها هو الموسيقى ، هو أنغام الكمان تحلق بها فى الآفاق. تشعر إزاء العمل الذى يمارسه أبوها بالنفور فتضع بينها وبين ما يتعلق به فاصلاً لا تتخطاه. هو لا يحكى لها وهى لا تسأله ، كأنها قررت أن تعوضه عن الزوجة التى ماتت

رفض أن يقترن بغيرها وظل يضع صورتها إلى جوار سريره، وعلى مكتبه وفى الحقيبة التى يحمل فيها أوراقه عندما يسافر. وربما أيضاً ربط بينهما الإحساس بفقدان المرأة التى كانت أقرب إليهما من أى إنسان آخر فى حياتهما.

كانت تتفادى ما يمكن أن يغضب الرجل المشدود كالسلك الكهربائى الموصل فى دائرة كهربائية طاقتها "ألف فولت" فهى تكره أن يظهر القبح الموجود فى شخصيته أمامها. تحبه بطريقتها الخاصة، بنوع من الإشفاق على التعاسة التى تستشف وجودها فى أعماقه. لكن حيث تعلقت المسائل بحياتها كانت ترفض أى تدخل من جانبه. حاول أن يثنيها عن المسار الذى اختارته. يقول "هى الكمنجة دى حتوصلك لإيه. البلد دى مش بتاعة مزيكا. السلطة يابنتى، السلطة هى كل حاجة. هى اللى بتجيب المال فتقدرى تأجرى فرقة خاصة تضربلك مزيكا وقت مانتى عايزة بدل ما تهلكى نفسك بالتمرينات لحد نص الليل. أنا عندى بدل العريس عشرة أقل واحد فيهم حيبقى زيى وأحسن منى".

كانت عنيدة ففشلت كل محاولاته. أدرك أنها مثله فى العناد. يقول للمقربين إليه بابتسامة نادرة "طلعه زيبى ماحدش يغلبها"، فكف عن الصراع معها وقام بينهما نوع من التوازن ظل قائماً رغم قابليته الشديدة للاهتزاز. ربما كان يتوق إلى أشياء بثتها فيها أمها فأحب فيها أمها الغائبة ، أو ارتبط بها وكأنها بالنسبة إليه طوق النجاة، الركن المنزوى من نفسه اشتعلت فيه أحلام وانطفأت

فى بداية المشوار، أو المرأة التي خرجت من صلبه مثل الجنية الساحرة، ثم تركته وعاءا مفرغاً هائماً فى الظلمات.

سارت الحياة فى طريقها إلى أن عاد "مصطفى الحناوى" فى ذلك اليوم ليبلغها بعد أن تناولا العشاء بالقرار الذى صدر، فوضعها أمام اختيار صعب. أن تبقى فى القاهرة وتتركه يرحل وحده إلى الصحراء أو أن تذهب معه تاركة وراءها أضواء المدنية، وأهم من ذلك الفرقة الموسيقية التى عشقت ساعات العزف فيها. ظلت الليل كله مفتوحة العينين فى سريرها. لكن فى الصباح كانت قد حسمت أمرها. ربما ستترك الفرقة الموسيقية وحياتها فى المدينة لكن فنها تستطيع أن تحمله معها أينما ذهبت، أن ترويه بالتأمل، والتدريب، فجلست بعد الإفطار على الشرفة وأعدت كشفا باحتياجاتهما بعد أن تعرف أبوها على مواصفات الاستراحة التى سيقيمان فيها، ثم أخذت تجمع المناشف، والمفارش، والستائر، والأوانى، والأطباق، وأدوات الأكل وغيرها من الأشياء. وفى اليوم التالى ابتاعت المبرد، وفرن الطهى، وبعض قطع الأثاث قبل أن تسافر إلى "شبين الكوم"، وتعود ومعها شغالة تركتهما بعد أن عملت فى بيتهما لتتزوج من فلاح قام بتطليقها لأنها لم تنجب منه.

بعد أن انتهت من كل هذا تفرغت لما هو أهم، لكراسات الموسيقى، والشرائط، والأسطونات المدمجة، وأجهزة الاستماع، والتسجيل، ولصيانة "الكمان" الذى ابتاعته من محل فى شارع "

عدلى " غداة اليوم الذى تخرجت فيه من "الأكاديمية" ، كما لم تنس أن تتزود بخيوط، وسلوك احتياطية للكمان.

وضعت كل هذه الأشياء فى صناديق وكراتين حملتها طائرة حربية كانت متجهة إلى الواحات الخارجية للاشتراك فى مناورات عسكرية قرب "طريق الأربعين" كجزء من التنسيق مع "الناتو" ، ومعها الشغالة، امرأة شابة حلوة إسمها "رقية" لفت رأسها بمنديل أحمر تتدلى من أطرافه دوائر الترتر، فأخذ مساعد الطيار يروح ويجئ ملقيا ناحيتها بنظراته بينما ظلت هى تحملق أمامها بذلك الجمود الذى يقول : "إياك أن تقترب". وصلت الطائرة فى اللحظة التى خرج فيها "حمدان" من خيمة الوارد التى تم تسكينه فيها. سمع صوتا كالرعد البعيد فرفع رأسه إلى السماء. لمح الطائر المعدنى الكبير يحلق فوق نقطة لاتبعد عن سور المعهد إلا كيلومترات قليلة، ثم هبطت ولم يعد يرى شيئاً. عاد الصمت يحلق على كل شئ كأن الحياة دبت قوية فى لحظة ثم ابتلعتها رمال الصحراء. أحس بقلبه يقفز تحت الضلوع ، بأنه خلف هذه المساحات الممتدة بلا نهاية عالم ما زال يموج، عالم تركه منذ أن جلس فى القطار وأخذ يتأمل الوجوه المرهقة المستسلمة لمشوار الحياة.

* * *

الفصل الثالث

أمسك أبوها بذراعها وقادها فوق الرصيف قائلا :

"من هنا يا "كريمة". حجزوا لنا مقصورة للنوم. سنصل إلى الأقصر بعد ست ساعات، ونبيت فيها ليلتين حتي نتمكن من زيارة "وادي الملوك". عملت هذا الترتيب خصيصا لك. هذه القطارات الفرنسية مريحة وإن كان مستواها قد تدهور في السنين الأخيرة مثل كل شيء. ".

ألقي إليها بنظرة جانبية. خطر في بالها أن ضميره ربما يؤنبه. سينقلها من حياتها المليئة بالنشاط الذي تحبه إلى بقعة صحراوية لا يوجد فيها شيء. تتساءل أحيانا. هل كان قرارها سليما ؟ وماذا سيكون تأثير هذا النفى عليه ؟ سيصبح الأنيس الوحيد لها وهذه الحقيقة تثير في جسمها رعشة. تحن إلى أمها، إلى الضوء يشع من عينيها عندما كانت هى طفلة تنطق كلماتها الأولي، الى ملمس صدرها تحت القميص عندما تخلع مشداتها في البيت. تشعر بتناقض يقلقها بين عمل أبيها على رأس الجهاز الذي

يديره وبين حياتها معه. حلت هذا التناقض بالهروب منه، بنسيانه كأنه ليس جزءا من العالم الذي تعيشه. لكن الآن سيكونان وحدهما في هذا المنفى. في لحظات تندهش كيف استطاعت أن تشاركه الحياة طوال السنين. تحس في أعماقها بتأنيب الضمير كأن سكوتها كان نوعا من التواطؤ. تعود إليها صورة ذلك الرجل الطويل القامة الذي لمحته وهو يهبط على سلم المحكمة في "المنصورة " مرتديا زي السجين ومن حوله جنود الحراسة. كانت واقفة في ظل شجرة تستنشق النسيم ينساب بين الأوراق حاملا معه رائحة الحقول من الضفة الأخري للنيل. نظر إليها من فوق الرؤوس وابتسم ناحيتها. ظلت واقفة دون حركة كأنها لم تلاحظ شيئا، وبعد أن اختفي في السيارة البوكس الرمادية أحست بالندم. لماذا لم تبتسم له ؟ تصرفت كأنها مسئولة عما هو فيه، كأنه لا بد مدرك أنها ابنة الرجل الذي طارده حتي وقع بين يديه. لكن إن كان يعرف لماذا ابتسم إليها؟ هل كان يريد أن يقول لها أنه لا يربط بينها وبين أبيها؟

بعدها بأيام أذاعت التليفزيونات العربية نبأ وفاته من التعذيب في سجن "القلج النموذجي". أصبحت صورته تقحم نفسها عليها وهي تعزف مع الفرقة السيمفونية فتجاهد حتي لا ترتعش يداها، أو وهي جالسة تتحدث مع أبيها فتنسحب إلى غرفتها بسرعة، أو وهي تتنزه عند سفح الهرم ساعة الغروب. كانت تدرك أنها إذا فاتحته في هذا الموضوع ستنهار العلاقة القائمة بينهما ولن يكون هناك سبيل للاستمرار معه في البيت. وكان هذا يولد لديها

الإحساس بأنها استمرأت الراحة ، والإمكانيات التي يوفرها لها فتبقي مؤرقة لمدة أيام عاجزة عن فعل أي شيء.

ما سهل عليها الأمور هو أنهما كانا يعيشان وكأنهما نزيلان في فندق فلا يلتقيان إلا بالصدفة. بالنسبة إليها كان هذا الوضع يريحها. أما بالنسبة إليه فبدا أن هذه اللقاءات القليلة تكفيه كأن احتياجه للعواطف ضئيل لأنه إن زاد يمكن أن يعرقل سيره في الطريق الذي سار فيه ، كالنبات الصحراوي يحيا على الماء القليل. كان يشبه الأجهزة الحديثة. عقله وجسمه يعملان بطريقة التقطير ، فكل شيء في حياته خاضع للحساب الدقيق حتي أكله ونومه ما عدا في مجال واحد هو المال يغدق عليها منه مثل السلطان يوزع الدنانير الذهبية بالكيس ، يعوض بالكرم المادي المهووس عن تقطيره العاطفي.

كان يحبها حب الأب الذكر المالك للحريم. هي الأنثي الوحيدة في حياته فتركزت مشاعره فيها. كانت ترتاح إلى الأمان الذي أحاطها به يوفر لها سبيل التفرغ لما تريده لكنها كانت تخشاه في الوقت نفسه ، فهي تدرك أن جنوحه للتسلط لا حدود له، وأنه ينسج حولها خيوطا من حرير. حتي كرمه الشديد نابع من عشقه للسلطة يمارسه معها ومع غيرها ، فالسلطة عنده هدف في ذاته يحترق به جسده النحيل كالشمعة تتغذي على نفسها لتعيش.

انطلقت أفكارها مع القطار الذي أخذ يشق الحقول تاركا المدينة. صار يتأملها جالسة إلى جوار النافذة على مسافة قليلة منه، مرتدية ثوبا أبيض وصندلا. رأسها مرفوع على عنق طويل

وعيناها العليان تضفي عليهما الحقول ظلالا زرقاء وخضراء أو تفسح المجال لأشعة الشمس تضيئهما. أحس بشيء غامض يحلق في الجو، شيء كالجريمة. لحظة جاءته على أطراف الوعي ثم اختفت مثل الوطواط الطائر في الضوء الفاصل بين النهار والليل.

التفتت إليه كأنها شعرت مثله بشيء ، فتلاقت عيونهما عبر المقصورة ثم نظر إلى ساعته كأنه يتفادي أن تقرأ فى عينيه الظلال التي صعدت فيهما.

* * *

الفصل الرابع

لم يكن للصوان الذي دخل إليه "حمدان" باب. كان مفتوحا من عدة جهات، مع ذلك تملكه إحساس بشيء كالغاز المخدر يضغط بثقله كأن الحياة في هذا المكان مخنوقة تصارع للإفلات إلى المساحات الواسعة. تخيلها مثل طائر مشدود العنق متأهب للطيران بينما يد تمسك بأطرافه لتحول دون انطلاقه.

توقف وسط الصوان إلى جوار مائدة طويلة وضعت فوقها بعض الأواني صبغها الهباب بلون أسود. حول الأواني تناثرت أكواب من الزجاج فيها بقايا شاي بعضها سليم، وبعضها مكسور، وبعضها راقد على جانب. في الجزء الأمامي من الصوان ارتفع منبر من الخشب تزاحم فوقه عدد من الرجال جلسوا على مقاعد، ومن شدة الزحام أصبح الجالسون عند الأطراف مهددين بالسقوط. كانت المقاعد التي تحملهم ترتكز على أرضية المنبر برجلين ، وتترك رجلين معلقتين في الفراغ فصاروا يرفعون أطرافهم في الهواء ويقومون بحركات بهلوانية للحفاظ على توازنهم. بين الحين والحين كانوا يلقون بنظرات قلقة إلى الجالسين في الجزء الأوسط

من المنصة فأي حركة منهم كانت ستؤدي حتما إلى سقوطهم وانضمامهم إلى صفوف المستمعين في الصوان جلسوا على الأرض، واتخذوا لأنفسهم أوضاعا مختلفة. فمنهم من جلس القرفصاء، ومنهم من استلقي على ظهره واضعا يديه خلف عنقه ليرفع رأسه، ومنهم من نام فوق بطنه كأنه يستعد للزحف على المنصة ليحل مكان من يسقط منها. وبالفعل بينما كان المشرف العام واقفا يلقي كلمته أحس "حمدان" بجسم يهوي من على يسار المنبر فالتفت ليجد أحدهم وقد سقط مغشيا عليه من فرط الجهد الذي كان يبذله للحفاظ على مكانه. لمح وجهه المنتفخ الأوداج، والعوينات، والبطن البارزة أعلي الحزام. ظل الرجل ساكنا لبعض الوقت كأنه فقد الوعي، أو كأنه يستجمع قواه ليعود فوق المنصة، ثم أخذ يحرك أطرافه بحركة ضعيفة وارتفع منه صوت مثل الشخير تحول بالتدريج إلى صراخ يشبه الاستغاثة، أو الهتاف الحزين لكن لم يلتفت إليه أحد.

أما الجالسون على المنصة فأغلقوا الفجوة التي تركها بسرعة ليبدوا كالجسم الواحد الذي له عشرات الوجوه، والأطراف والعيون تنظر إلى الأمام بنظرة واحدة بينما الأقدام والأكتاف ثابتة، ملتصقة ببعضها، لا تتحرك من مكانها. ما عدا رجل واحد ترك له فراغ في الجزء الأمامي من المنصة فخلع حذاءه وأخذ يحرك أصابع قدميه. كان مربع الجسم رأسه كبير يعلوه شعر مصبوغ باللون الأسود ، فمه عريض، وعيناه تطل منهما نظرة بليدة لكن عندما يصفق له الحاضرون كانت تنتقض فيهما الفرحة

كالصبي الصغير ابتاعوا له كرة جديدة يلعب بها. عندئذ يبتسم الجالسون إلى جواره ويصفق المجتمعون في الصوان فإذا رفع يده في الهواء عادوا إلى حالة الجمود الذي استغرقوا فيها.

بين الحين والحين كان يطلب أحدهم الكلمة ثم يمسك بالميكروفون، ويصرخ فيه بروح الاندفاع إلى المعارك الكبيرة، أو يتحدث في أسى عن معاناة الجماهير بينما الجالسون على أرض الصوان مشغولون بالحديث فيما بينهم. يسترسل في خطبة طويلة فتنغلق الجفون في إغفاءة ثم يستيقظون فجأة، ويهبون واقفين لتعلو أصواتهم وقبضاتهم في ثورة عنيفة تستكين عندما يرفع الرجل الجالس في منتصف المنصة يده طالبا السكون حتي يمكن الانتهاء مما يجب الانتهاء منه قبل موعد الصلاة.

بين لحظة وأخرى كان يسمع صوت جرس موسيقى بتردد عدة مرات أو أزيز يشبه طنين النحلة، فينتفض أحدهم ويمد يده خلف الآليتين ليستخرج كيسا من البلاستك أو الجلد يفتحه بحرص ويخرج منه جهاز المحمول. يبحث في الشاشة الصغيرة باهتمام ثم ينطلق خارج الصوان واضعا المحمول على أذنه بيد بينما يده الأخرى مدفونة فى جيب السروال. يروح ويجىء فى الحوش بعصبية ويتدفق منه الكلام كأن هناك مسألة خطيرة يجرى فيها الاتصال، أو يضحك بصوت عالٍ أو يسترسل فى الحكى قبل أن يعيد الجهاز الى مكانه، ويدخل من جديد فى الصوان، وعلى وجهه جمود متعالٍ كأنه أنجز ما كان يعجز غيره عن إنجازه.

أراد "حمدان" أن يتابع الكلمات لكن كلما حاول أن يركز انتباهه سرح، وتوالت صور مختلفة في ذهنه. أبوه وهو يرفع الفأس عاليا ويضرب في الأرض بغضب، طفلة أصابتها شظية قنبلة فخرجت الأحشاء من بطنها، عصافير كالسهام تجتاز السماء أمام الشمس الغاربة وجارهم طويل القامة منحني الكتفين يرتدي طاقية سمراء تطل من تحتها عيناه الصغيرتان بنظرتهما النافذة وهو يقول "عجلى بيسافر من حبة الجمح، وأطفال "العراج " وابنى اللى مات فى الحرب مع العصافير دي اللي مروحة. تعرف تحط ده كلته في الشعر اللي بتكتبه".

أحس فجأة بالأشياء تدور من حوله، بساقيه ترتعشان من تحته. بحث عن شيء يمسك به فوجد حبلا يمتد من عامود إلى وتد مدكوك في الأرض لكن بعدها أحس بيدين قويتين تجلسانه على مقعد. التفت ليجد الشاب واقفا إلى جواره. ابتسم إليه وقال :

"أحضرت لك الخبز، والشاي، وقطعة من الجبن".

* * *

في تلك الليلة حلم "بكريمة"، بأنه يقبل شفتيها. همست في أذنه "أنا باحبك". استيقظ ليجد نفسه راقدا على لوح من الخشب.

كانت هى المرأة الوحيدة التي أحبها. أحبها بنتا صغيرة تعدو خارجة من باب المدرسة، وشابة تخطو كالغزال في حواري القرية، وامرأة تنام عارية بين أحضانه. كانت كالنيزك أضاءت في سمائه مبهرة ثم انطفأت. منذ اللحظة التي رآها فيها أحس أن المصير ربط بينهما، لكنه أدرك بعدها أنها كالطائر المهاجر يأتي

اليوم، ويرحل غدا. إنها بالنسبة إليه واقع مادي ملموس ، وخيال زائل لن يدوم.

رآها لأول مرة في الغيط، وبعد ذلك وهي عائدة من المدرسة. سار وراءها وقلبه يدق. شعرها يلمع بوهج دفين كأنه يحمل في ثناياه دفء الأرض، وشمس الخريف. مد يده ببراءة الطفل المندهش وربت عليه ، فمدت يدها إلى خده ولمستها ثم انطلقت تجري في الطريق إلى البيت. أصبح يمشي إلى جوارها فوق طريق العودة إلى البيت. يتوقفان تحت شجرة الصفصاف ليحتميا بها. يلمس ثديها الناهد بأصابع ترتعش فتتراجع وتنهره بعصبية، ثم أصبحت تقبل على لمساته. عيناها فيهما رسالة بدت له غامضة فلم يتعود بعد لغة العيون عند المرأة الصبية. كان يتلو عليها أبياتاً من الشعر، وتغني له أغاني الغزل الريفية.

دارت الإشاعات في القرية ثم وصلت إلى أبيها. رجل جسمه ضخم وصوته ناعم كحد الموسى ، مقاول أنفار كون ثروة من عرق الأطفال في موسم جني القطن. أما هو فبعد أن مات أبوه أصبحت أمه تعتمد على أخيها. تستأجر معه فدان وثلاثة قراريط. أقنعها بضرورة إبعاده عن القرية منعا للبطش الذي قد يصيبهم.. " الولد صلب الرأس " هكذا قال لها: " لا يستمع إلى النصيحة ". التقط الهمسات التي كانا يتبادلانها تحت نافذة الحجرة التي ينام فيها.

كان الفراق قاسيا على أمه. تعود آخر النهار فيجدها جالسة القرفصاء أمام النار تعد له طعام العشاء. يدخل في صمت ويربت

على كتفها بيده. تتذكر لمسة الحنان في أصابع أبيه. تتفرس في ملامح الإبن وعينيه. تدرك أن خلف الهدوء تنمو العاصفة. ورث عن أبيه حب النغم، وورث عنه أيضا "شيطان" الغضب. لا تنسى اليوم الذي تعارك فيه مع إبن الجزار ، ولد أبله العقل ، قوي الجسم حاول أن يغشه في الميزان فأمسك به من الجلباب ودق رأسه في جذع الشجرة التي يقطع عليها اللحم. عاد إلى البيت شاحب الوجه ينزف دمه من ضربة سكين في الفخذ.

كانا يمشيان في العزبة مرفوعا الرأس، لكن أمه أصبحت تخشي عليه من غدر مقاول الأنفار، ومن أبيات للشعر سمعته يلقيها على الجسر في جمع من الفتيان.

أقنعته بأن يرحل إلى "طنطا" ليسكن مع الشيخ "حمزة البيلاوي" خلف وابور المياه، وهناك بعد أن وصل أغلق على نفسه حجرته الضيقة وبكي بحرقة الأطفال أمام غدر الحياة ، بحرقة الشاب الذي اكتشف عذاب الفراق ، ثم جفف دموعه وأقسم أن يعود. ومنذ تلك اللحظة إنكب على دروسه. كان يحترق في الداخل كأن في أعماقه شعلة فنحل عوده وارتفع قوامه. كانت عيون البنات تتبعه في الشوارع الخلفية، وعيون النساء أيضا. عرف طريقه إلى جسد المرأة ، أرملة رجل شيخ كانت تعطيه دروسا في التقوي ، وتختم الليلة بدروس في الجنس. تقول له " اترك قضيبك ليرقص داخلي ". ثم تحتويه بجنون الشبق صارخة " الله.. الله أكبر "، ولأنها كانت تكبره تذكر أمه ، فأحس بالإثم. تذكر الوفاء الذي غرسته فيه، وحسها المرهف. تذكر كبرياء

المرأة ربطت حزامها حتي يكمل دراسته. يوم أن ماتت عاد إلى العزبة بعد منتصف الليل. في اليوم التالي حمل نعشها، وشارك في دفنها وفي تلقي التعازي ثم اختفي من العزبة. لمحه بعض سكانها سائرا على قدميه في الطريق إلى "طنطا" وهو يبكي في صمت.

أصبح طيف "كريمة" يطارده أكثر من أي وقت مضى. في الصباح عندما يستيقظ، وفي المساء عندما يرقد، وفي الأحلام، أو وهو سائر في شوارع "طنطا". الوهج العميق في شعرها ونظرة التأمل فيها حزن. صوتها عندما تضحك أو تغني والابتسامة الواثقة من نفسها كأنها تقول: "لا أخشي منك ، ولا أخشي عليك".

بعد أن مرت سنة أصبح يعود إلى العزبة. في كل مرة يبحث عنها. يبحث في كل حارة أو زقاق داخل القرية. يبحث فوق الطريق إلى المدرسة، وفي طريق العودة منها، وتحت أشجار الصفصاف إلى جوار الترعة. في بعض الليالي يحوم حول بيتها. يمشى الساعات الطويلة كأنه يبحث عن آثار قدميها ، عن شعرها تحت المناديل ، عن خصرها ينسدل حوله ثوبها الطويل، عن عينيها.

لم يجدها. غابت كالطير المهاجر إلى بلد بعيد. قالوا أن أباها أرسلها إلى الإسكندرية لتلتحق بمدرسة للبنات. خطر في باله أن يسافر إليها، أن يركب معها أمواج البحر إلى أسبانيا، إلى بلد الشعر والأغاني الأندلوسية قرأ عنها في مكتبة الجامعة حيث كان

يعمل أحد أقارب الشيخ حمزة. لكن صوت في أعماقه كان يقول أن الوقت لم يحن بعد ليعثر عليها.

مرت السنين وفي أحد أيام الأجازة الصيفية كان عائدا آخر النهار من سوق القرية. مر أمام خط الحوانيت الصغيرة إلى جوار النقطة. ألقي التحية على البقال فقد ساقه في حرب الخليج الأولي عندما كان يحارب مع القوات العراقية ضد الغزو ، وعلى ابن الجزار الذي كان قد تعارك معه في الحارة منذ سنين. جلس الرجال مقرفصين يستنشقون النسيم ، ووقفت النساء تتبادلن الحديث عند أبواب البيوت. ألقي السلام على الرجال وارتفع الرد المنغم "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته" فاختلط بصوت العصافير تبحث في أشجار الجمعية التعاونية عن مكان للمبيت. توقف لحظة عند تقاطع الحارة، والشارع الواسع يصعد قليلا. قرب نهايته لمح بيت أبيها مقاول الأنفار مبنياً بالطوب من دورين ، ومطلياً بلون وردي. من دخلوه قالوا أن جدرانه مدهونة بنوع من البلاستيك يمتص الحرارة والرطوبة زادت في السنين الأخيرة نتيجة تسخين الكرة الأرضية. إن الحديقة مزروعة بأشجار البرتقال، مع أصناف أخري مستوردة من إسرائيل. أن المقاول الصغير أصبح من رجال الأعمال، وتزوج من امرأة أخري ثرية غير أم "كريمة".

قبل أن يغوص في الحارة ألقي بنظرة أخيرة في اتجاه البيت، فرأي الباب يفتح، ورأي قوام امرأة تخرج منه، ثم تغلق الباب وتهبط سائرة في الشارع. توقف عن السير. التصقت قدماه

بالأرض، وتسمرت عيناه عليها، على شمخة الرأس المرفوع على عنقها الطويل، على وهج خصلة الشعر تطل من تحت المنديل، على الثقة التى أودعتها الطبيعة فيها، في حركة جسمها، على ملكة للكون أخذت تخطو نحوه. كان قلبه يدق عنيفا تحت الضلوع دقات الإحساس بأنه في تلك اللحظة يتقرر شيء ظل ينتظره منذ سنين. رأى الشمس الغاربة معلقة فوق البيوت كأنها توقفت لتشهد الحدث، والأطفال في الشارع كفوا عن لعب الكرة، وأطلوا عليهما بنظرة متأملة.

سكتت كركرة الدجاج، وثرثرة النساء، ونباح الكلاب، وأخبار المذياع. سكتت حتي رفرفة الحمام، انزوى في الأبراج ليخرج رؤوسه من الفتحات، وهمس الريح في أوراق الشجر، والأنين الصدئ لضلفة الشباك في بيت المأذون. تلاشت كل الأصوات، وتوقفت حركة الأشياء، ما عدا خطواتهما الثابتة الهادئة فوق الطريق، وحركة العيون تطل من الأبواب، والنوافذ ، وأسطح البيوت لتسلط عليهما كل القسوة، والغيرة، والحقد، كل الشكوك والتساؤلات المضطربة في أعماقهم.

فجأة انسكبت أشعات الشمس في الطريق الذي يسيران عليه. أغرقته برقة الساعة الأخيرة للنهار، بألوان الغروب تسقط على الجدران المعجونة بالبؤس. وربما لمدة لحظات ماتت الغيرة، والنميمة وصفت النفوس. أحست برباط بين امرأة ورجل فيه حب حقيقي ووفاء.

قالت.. كريمة.. في صوت رنان :

"وحشتني يا "حمدان"."
"وانت وحشتيني "يا كريمة"."
"وما زلت أحبك يا "حمدان"."
"وأنا أيضا ما زلت أحبك "يا كريمة"."
"إذن زوجتك نفسي يا "حمدان"."
"وأنا أزوجك نفسي "يا كريمة"."

تلفتت حولها. صوتها يعلو كالنداء ، يبث الراحة، والتحدي والأمان.

" فليشهد الناس أننا أصبحنا زوجين".

مدت إليه يدها فأمسك بها. ربت على رأسها بحنان. يده على رأسها وجسمها تعرفها. اشتاقت إليها من زمان. حفرتها في الذاكرة. سارا فوق الطريق خطواتهما هادئة فيها اطمئنان ، وعلى الجانبين وقف الرجال والنساء، والأطفال، والحيوان. نظرة العيون ذاهلة، أو خائفة، أو زائغة في الأركان.

دخلا من باب الحديقة واختفيا في الداخل. أضيئت الأنوار في بيت المقاول فسرت رعشة في الكتلة المتراصة المنتظرة من الأجسام. ظلت الجموع في الخارج دون حركة كأنها تنتظر شيئا ما. لكن بالتدريج تفرقت وعاد الناس إلى بيوتهم. أخذت مصابيح الكهرباء الضعيفة تلقي ظلالا غامضة على الجدران وهم يدخلون الجاموس، والدجاج، والأطفال. التفوا حول طبليات العشاء. أكلوا فى صمت ثم قاموا بسرعة وآووا إلى الفراش، لكن ظلت عيونهم مفتوحة تحملق في الظلام.

انتقلت "كريمة" إلى بيت "حمدان"، ونامت إلى جواره. لا أحد يعرف مادار في بيت أبيها. لم تحك هى عنه شيئا، ولم يحك "حمدان". في الصباح تناولا الشاي والحليب وفطيرة بعدها أعدا أمتعتهما القليلة وحملاها حتي الطريق العام. حكي بعض الناس أنهم لمحوا شبح أمه الميتة وهي تقف في ظل الباب إلى أن أوقفا سيارة للأجرة، وركبا فيها ثم دخلت وأغلقته وراءها. لكن الأغلبية تشككت في هذه القصة حيث لم يرهما أحد وهما يغادران العزبة سوي غفير عجوز ، وطفلة كانت مقرفصة إلى جوار الطريق حاصرها البول وهي تجرى وراء معزة أفلتت من الدار.

عادت الأمور إلى مجراها وفي إحدي الليالي اجتمع بعض فلاحي القرية بعد دراس الفول حول براد من الشاي ، وكرسي دخان أمام كشك الغفير. فوجه إليه أحدهم سؤالا:

"بيجولوا إنك شفتهم وهم مسافرين يا حاج. يا تري حالهم كان شكله إيه؟

"حال مين ياعم ؟"

"حال مين. حال "حمدان" وكريمة" ياراجل انت".

دفع الغفير بطاقيته إلى الأمام. هرش خلفها ثم أعادها إلى وضعها المعتاد ثم قال :

" تجصد إيه؟"

"أجصد أيه؟ أما شيء عجيب. أجصد حالهم".

صمت لحظة طويلة قبل أن يجيب.

"زي مى كونوا واجفين في جنة رضوان".

دارت همهمة مكتومة حول الجالسين. طارت بضعة شرارات من قوالح الذرة المشتعلة تحت البراد ثم ارتفع صوت يقول في احتجاج.

"استغفر الله ياشيخ. هو ده كلام تجولوا برضه بعد كل اللي عملوه"؟"

دار بعينيه العجوزتين حول الناس وقال في إصرار.

"أي والله يا ناس مش انتو اللي بتسألوا. كان في وشهم نور ما شفتوش على وش إنسان".

* * *

الفصل الخامس

الصحراء ملايين الملايين من حبات الرمل ، والسماء ملايين الملايين من النجوم ، والحشرات يحملها الريح في بعض الليالي بالملايين فتصطدم بالمصباح وتحترق تاركة بساطا أسود كريها تحت الأقدام ، والنمل الأبيض، والأسود، والأحمر يزحف بالملايين كلما وجد شيئا يلتهمه ، والدقيق الذي يعجنونه لصنع الخبز فيه سوس، خيوط صفراء أو سوداء قصيرة تزحف بالآلاف فيضعونه في الشمس وينتظرون ، والساعة فيها ستون دقيقة، والدقيقة فيها ستون ثانية، وكل ثانية فيها لحظات واللحظات تزحف فوق الملامح بطيئة، ملايين اللحظات المتشابهة مثل حبات الرمل، والنجوم، والحشرات المجنحة، والنمل، والسوس. الزمن كالصحراء، كالسماء، بلا بداية وبلا نهاية ما عدا أفق يلتقيان فيه، أفق يعرف أنه وهم، أنه مجرد خيال لا وجود له، خط واحد رفيع إذا نظر إليه ابتعد، وإذا تأمله طويلا اختفي تاركا الفراغ الذي لا ينتهي، تاركا مساحات كلما توغل فيها بعقله طالت، وأوهام كلما عاش فيها تأكدت حتي يواصل وهم الحياة.الكلمات يحس أنه

سمعها ملايين المرات دون أن يتغير شيء فيلوذ بالصمت تحت ثقل التكرار. والصمت إذا لاذ به أصبح بلا قرار. حتي أشعاره يبحث لها عن كلمات دون جدوي. ضاعت في رمال الصحراء ، والمساحات الخالية، والكلمات المكررة تقتل الإبداع.

كابوس ينتابه في بعض الليالي. أنهم جاءوا به إلى هذا المكان، ليصمت إلى الأبد. في بعض الأيام يتحول الكابوس إلى يقين فيقشعر برعب أفظع من رعب الفناء.الموت له زمن، له لحظة يأتي فيها وينتهي ليتحول إلى حياة أخري. أما الانتظار، أما التكرار فهولا شيء. تتحول أيامه في بعض اللحظات إلى قبر يحفر أمامه لا يعرف إن كان سيموت ليرقد فيه أو يدفن فيه حيا تحت الرمال. نضب معينه الداخلي وفقد قدرته على تحويل المعاني إلى ألوان، وزهور، وعيون، وموسيقي تقفز وترقص وتغني في الكلمات، إلى ظلال، وخطوط، وملمس ورائحة، إلى جمال منتظم يقاوم به جنون الظلم وفوضي الأشياء،يقاوم به الامتداد اللانهائي للزمن، والتكرار.

كل خيمة من خيام المعهد كان فيها اثنتي عشرة رجلا. يستيقظون في الصباح. يمدون أعناقهم من تحت البطاطين، ويمدون أصابعهم إلى علب السجائر. بعد قليل ترتفع سحب الدخان في الهواء يتتبعونها بعيون زحفت عليها الشعيرات الحمراء من مشاهدة المسلسلات ودخان السجائر ، والبانجو.

تتدلي رؤوسهم في استسلام وحولها خصل الشعر فتبدو كالزهور المتروكة في أوان بلا ماء.

كانوا يعقدون اجتماعات دورية لمناقشة بعض الأمور مثل استبدال الأحبال الرثة التي تربط الخيام بأخري متينة فالعواصف كثيرا ما كانت تهب دون سابق إنذار، رش الماء داخلها وحولها لترطيب الجو ، جمع الفضلات والتخلص منها، زراعة الصحراء لسد النقص في كمية وأنواع الغذاء، عمل ملعب لممارسة كرة السلة. كانت تمتد هذه الاجتماعات عدة ساعات في الصوان، فترتفع الضوضاء في سكون الليل وتختلط الأصوات، ويصبح من الصعب تتبع من يتحدث، أو معرفة ما يقال. الجميع يتكلمون في وقت واحد، ولا يصمتون إلا عندما يتكلم رئيس الاتحاد، أو المشرف العام.

تكررت هذه الاجتماعات دون أن يحدث شيء. المشاريع تطرح ولا تنفذ فتحل محلها مشاريع جديدة يطون حولها النقاش. أحس "حمدان" أنه ضائع وسط الكلام، ضائع في المساحة المحاطة بالأسلاك، والحراس، ووسط العيون تتطلع إليه في لا مبالاة، ضائع وسط فيضان الكلام، واللجان، والتيارات، فذهب إلى المشرف العام يشكو له الفراغ. وجده جالسا على مقعد قرب دورات المياه وإلى جواره حقيبته السوداء. أشار إليه بالجلوس على دكة. فحصه بنظرة سريعة ثم وضع ساقا فوق ساق وسأله:

"إنت"حمدان محمد عميرة" أليس كذلك؟"

"نعم. ذاكرتك قوية يا حضرة المشرف العام".

اتسع فمه العريض في ابتسامة كاشفا عن أسنان مدببة صغيرة ثم أضاف :

"لحظة واحدة وسأكون معك. أريد أن أنتهي من تنظيم إشغال دورات المياه. ازداد الزحام إلى درجة أدت إلى تراكم الفضلات، وانسدادها. لذلك قررنا أن نقسم الناس إلى أربع مجموعات، لكل مجموعة ست ساعات يمكنها فيها استخدام دورات المياه."

في هذه الأثناء كان قد أصطف أمامه طابور من نزلاء المعهد كان يوزع عليهم بطاقات. يعطي بطاقة لكل منهم ثم يتبادل معه حديثا سريعا قبل أن يقوم ويحتضنه بين ذراعيه في حماس كأنه مسافر في مهمة هامة. لاحظ "حمدان" أنه بعد أن تسلموا البطاقات صاروا يتجمعون في الخلاء ويرفعون قبضاتهم في الهواء ، أو يصرخون بصوت عال كأنهم يهتفون. لكن بالتدريج خفتت الأصوات وانشغل المتجمعون في عملية تبادل للبطاقات، فعلق المشرف العام قائلا "لكل واحد منهم بالطبع مواعيده الخاصة وعاداته في استخدام دورات المياه. فاتنا أن نسألهم عن هذا قبل أن نعد البطاقات".

أحس "حمدان" بالضيق. طال انتظاره، واقتربت الشمس من الأفق، فهم بالوقوف كأنه يستعد للانصراف. لاحظ المشرف العام حركته فقال بسرعة :

"لم يبق إلا دقيقتان وسأنتهي".

سلم بطاقة إلى أقرب الواقفين في الطابور، وتوجه إلى المتبقين قائلاً بصوت عال:

"نفذت البطاقات. سأطلب دفعة جديدة لنوزعها عليكم غدا".

ارتفع الصراخ من جديد، واقترب منهما أحد الواقفين. كان وجهه محتقنا وعيناه جاحظتين. بدا عليه أنه يستعد للهجوم على المشرف العام.فوقف وقال "تصرفوا بأية وسيلة. اعتمدوا على الحلول الذاتية" ثم أمسك بذراع "حمدان" وانطلق سائرا بخطوات سريعة من ساقيه القصيرتين في اتجاه الأكشاك القريبة من البوابة تجمع حولها عدد من الحراس. عندما وصلا إليها قاده وراءها ليختفيا عن الأنظار ثم جلس القرفصاء على الرمل وأسند ظهره للجدار. أخذ نفسا عميقا قبل أن يشير إلى "حمدان": "إجلس هنا. كان لا بد أن أوزع عليهم عددا من البطاقات لأرضي بعضهم فتنقسم الآراء." ندت منه ضحكة مبتورة ثم سأله:

"هل عندك بطاقة؟"

قال "حمدان" :

"لا".

"ماذا ستفعل إذن؟"

"سأريح نفسي خارج الأسلاك الشائكة".

"لا أنصحك بهذا. قد يطلق عليك أحد الحراس النار"

مد يده في جيب البنطال القصير الذي كان يرتديه وأخرج منه بطاقة.

"خذ هذه. عندي بطاقات احتياطية للمسئولين. إذا شحت البطاقات سيزداد سعرها ثم مصاريني يمكن أن تلح على في أي

وقت من النهار أو الليل خصوصا إذا طلبني القومندان. والآن أخبرني عن الموضوع الذي جئت إلى من أجله؟"

"أبحث عن عمل أقوم به".

"لماذا لم تنضم إلى لجنة من اللجان؟

"ليس فيها عمل".

"كيف !؟ معلوماتنا أن العمل سائر على قدم وساق".

"أبحث عن عمل من نوع أخر."

"بلغني أنه قبل أن ترسل إلينا عرض عليك عمل يتمناه الكثيرون لكنك رفضته".

"لم أرد عملا مرتبطا بالحكام".

" ليس لدي وقت لتضييعه معك في مناقشات بيزانطية. إقترح عملا يناسبك".

"أن أعمل في الفرن كعجان".

أحس بعينيه على وجهه كالحشرات. لمح شعرة من الريبة جاءت فيهما واختفت. رفع يده ومسح عليهما بمنديل. سأله:

"ولماذا المخبز بالذات؟"

"أعشق رائحة الخبز في الصباح."

"لكن المعجنة عملها شاق".

"أحب حركة الجسم، والعرق، والاستغراق".

أطلق المشرف ضحكته ترددت كالمنشار.

"يا سلام.... هذا شعر".

ألقي على معصمه نظرة خاطفة ثم أخرج من جيب البنطال الخلفي مفكرة صغيرة وقال :

"ليس عندي وقت لأضيعه في الشعر. ما زال على أن أحضر اجتماع وأن أؤدي واجب العزاء".

"لم تقل لي رأيك في الاقتراح الذي قدمته؟"

"اقتراح "لجنة الخدمات"؟"

"لا...إقتراح العمل في المخبز كعجان".

"لا أستطيع أن أبت فيه الآن. لا بد من عرضه على "لجنة القوي العاملة".

"متي يمكنك أن ترد على ؟"

نفخ في عصبية.

"أنا مشغول للغاية هذه الأيام".

"وأنا ليس عندي عمل".

تجاهل التعليق كأنه لم يسمعه.

"لا بد أن أنتهي من موضوع دورات المياه ومسائل أخري".

"يعني متي سترد علي؟"

"بعد أسبوعين، أو ثلاث على الأكثر".

"أسبوعين أو ثلاثة ؟!"

تنهد "حمدان". أحس أنه لا فائدة من الاعتراض. وقف وخطا بضع خطوات ثم عاد. قال :

"سبق أن طلبت منك إعطائي ورقا وقلما ولم ترد على حتي الآن. سأمر عليك باكر صباحا للحصول عليهما. تصبح على خير".

دار حول الأكشاك. الرمال مازالت دافئة تحت قدميه. فوق رأسه بدأت تظهر النجوم واضحة مثل قطع صغيرة من الثلج الأبيض في السواد. رفع عينيه إلى السماء وتأملها ثم أستأنف سيره في اتجاه الخيام.

*   *   *

الفصل السادس

جلست على الشرفة الواسعة مستغرقة في ألوان الغروب. أحست بكيانها يملأه السكون. الآن تستطيع أن تعيش مع نفسها دون أن يزعجها رنين التليفون، أو سعال حارس الأمن، أو صوت السيارات والآذانات تتردد في الميكروفون ، أو راحات وجيات أبيها المتوترة ، فالعمل الذي يقوم به في المعهد أقرب ما يكون إلى الروتين.

طوال السنة الماضية كان يشاركها شخص آخر في حياتها. لم تنجح في التخلص من ذكراه إلا عندما حملها القطار إلى الأقصر. دفنته مع الملوك في الوادي وواصلت مشوارها. عندما استقرت في الاستراحة التى سيقيمان فيها كان قد اختفي تماما. أدركت أنه قبل ذلك سعت إلى الحيلولة دون اختفائه. كانت تعاقب نفسها بإبقائه حيا في أعماقها فبعد أن مات أحست وكأنها المسئولة عما جري، مسئولة عن سقطته الأولي في الحياة، ومسئولة عن سقطته الثانية في المياه. تبتسم لنفسها بسخرية إزاء سجع الكلمات. لو كانت أدركت ما يدور بخلده في الوقت المناسب!! لكنها في

المرتين لم تلاحظ. كانت مشغولة بحياتها. تتساءل أحيانا. ترى هل الفن أناني؟ لماذا لم تدرك معنى الرعشة الغريبة في أصابعه، معنى تهربه من أسئلتها عن اللقاء الذي تم بينه وبين أبيها؟ لماذا لم يلفت نظرها ذلك الشحوب المخيف في الملامح، وحركة عينيه الزائغة؟ لو كانت الإنسانية التي تدعيها لنفسها صادقة لما تركته يواجه أزمته وحده. اتخذت قرارها دون أن تفكر كثيرا في الحالة التي وصل إليها. هل يمكن أن تقود المباديء إلى موقف خاطئ فيه من الرضى عن النفس أكثر من التفكير في تأثيره على شخص آخر ؟ ربما لعبت كراهيتها لحياة أبيها دورا فقد دخل "فاروق الملاح" كالعصفور الساذج في دائرة نفوذه، تلك الدائرة التي قاومتها طويلا لتبقى خارجة عن نطاقها.

كانت الأسئلة تحاصرها، وتحول بينها وبين النوم ليال متتالية. هل كانت تدرك دوافعها الحقيقية عندما قررت أن تتخلى عنه ؟ كيف انتهى الحب الذي دافعت عنه بإصرار في مواجهة صلافة أبيها إلى هذا البتر الحاسم ؟

أحيانا تشك أن أباها فعل ما فعله بدوافع أخرى لا تتعلق بالحصول على المعلومات التي أرادها كأنه كان يريد أن تظل هي أيضا محاصرة، خاضعة. عواطفه نحوها تنجذب إليها ، وتخافها. تقرأ في عينيه شيئا كالحب المشبوب، ذكورة تشعل خيالها بالاغتصاب. تنظر إلى وجهها في المرآة صعدت إليه دماء

الانفعال. في أعماقها صوت يقول : ما الذي يجري لك يا فتاة؟ ما هذه الأحاسيس؟ تسرع إلى الكمان لتواصل تدريباتها.

.. حركت جسمها فوق الكرسي الخيزران. الأفق البعيد يتراءي لها كالخط الأسود الرفيع. شعرة رفيعة تفصل الكون إلى جزئين. تفصل بين الخير والشر، بين الضياع والخلاص، بين العقل والجنون. تتذكر عيني " فاروق " في تلك الليلة فيهما رعب كالطفل الذي أفلتت يده من يد أمه فتاه وسط الجموع. كالمحكوم عليه بالإعدام ساعة دوران المفتاح في الباب.

.. رأته أول مرة جالسا فوق المنصة وفي يده العود. في نظراته الرقة التى اعتصرت قلبها. لم تلمح تلك الشعرة من الضعف التي تختبيء في أعماق الشاب الجميل أخذ يحدثها بصوته الهاديء، في الشفتين تنطقان كلمات الفداء وتلسعانها بالقبلات، في أصابعه تدق على العود وتتلمس فيها أنوثتها المدفونة. عاشت معه حبا كالعاصفة، كالصباح، كالصفاء، كالعطش والحريق، كاللحن العميق.

كانت تحلم بالبطل عاد من الحرب ، وعلى صدره وسام. يعزف لها على عوده ويغني للفداء. اتفقا على الزواج لكن أباها إعترض. ظل يناقشها ليلة كاملة. حدثها عن الملف الخاص به فيه تفاصيل لا تعرفها عن نشاطه. أدرك بغريزة الصياد المدرب على التقاط رائحة الفريسة ، أن في أعماق الشاب ثغرة. سيعتصره كالليمونة ثم يلقي به في صندوق للقمامة. يعرف "كريمة" جيدا. لن تقبل أن تتزوج منه إذا عمل مع البوليس ، خصوصا بالصفة التي

يستهدفها له ، وإن رضيت فخير له. سيكون الولد من أتباعه، وسينكسر عنادها. سيحطم شوكة هذه الأنثي المتمردة التي تتحداه. تشمخ برأسها على عنقها الطويل مثل أمها. نظراتها يقرأ فيها أحيانا شيئا كالازدراء. الوحيدة في هذا البلد التي تجرؤ على النظر إليه بهذه الطريقة.

لم تعرف "كريمة" تفاصيل ما حدث. فوجئت "بفاروق الملاح" شاهدا رئيسيا في قضية "التحالف الديمقراطي الشعبي". صورته منشورة في الصفحة الأولي للصحف. أحست أن عالمها ينهار. شيء كالزلزال الصامت. حبست نفسها في غرفتها. أحست بنفسها أجزاءًا مبعثرة. في ساعة متأخرة من الليل فتحت بابها وهبطت السلالم. كان أبوها جالسا خلف مكتبه يقلب في بعض الأوراق. ترك المصباح وجهه في الظلام فلما سألته أحست كأن صوته يأتيها من باطن الأرض. إدعي أنه لا يعرف عن الموضوع شيئا، أن جهازا آخر غير الذي يشرف عليه هو الذي يباشر القضية. أدركت أنه يكذب عليها. أما "فاروق" فقد أختفي. رائحة الخيانة تحلق حولها، ترتفع من العود تركه في الصالة، من ملامح أبيها وجسمه القابع في ظلال الحجرة.

قررت السفر إلى الإسكندرية. أعدت حقيبة صغيرة وضعت فيها غيارات داخلية، ومناشف، وقميصين للنوم، وقميصين للخروج، وسروالين، وفرشاة للأسنان، وصابون، وحذاءً للمشي، وخفاً. أغلقت الحقيبة ثم تذكرت لباس البحر فأخرجته من أحد الأدراج ووضعته في الحقيبة ثم أغلقته من جديد. خرجت من

البيت بعد الفجر واستقلت سيارة للأجرة حتي محطة "السوبر جيت". إبتاعت تذكرة في "الأوتوبيس" الذي يقوم من الجيزة في الساعة السابعة إلا ربع. تركت حقيبتها في الكشك وسارت إلى جوار النيل حتي إقترب موعد القيام ثم عادت لتتسلم حقيبتها وتصعد إليه. جاءت جلستها في المقعد الأمامي إلى جوار النافذة فتركت نفسها للمساحات الخضراء امتدت فوق رمال الصحراء، للحركة المنسابة الناعمة للأوتوبيس يقطع المسافات ويفصلها عن الأمس.

قضت أغلب الوقت جالسة على شرفة حجرتها في الفندق تتطلع إلى البحر. عند آخر النهار تمشي مسافات طويلة على الكورنيش ثم تعود لتستأنف جلستها أحيانا حتي الفجر. تكاد لا تأكل شيئا: قليلا من الزبادي وخبزا محمصا، وفواكه وأقداحا من الشاي باللبن.

عادت بعد أسبوع. لمح أبوها وجهها وهي تجتاز الردهة إلى غرفة نومها. كان كالتمثال المنحوت تطل منه عيناها ببريق الحجر المصقول. أغلقت الباب وراءها بسرعة فأدرك أنها تتفادي الكلام، وأنها إتخذت قرارها.

إتصلت "بفاروق الملاح" في اليوم التالي. دق التليفون في منزله وهو يتأهب للخروج. نادت عليه أمه وهو عند الباب الخارجي فعاد. صوته وهو يرد عليها خافت ممسوح. طلبت منه أن يمر عليها في الساعة السادسة مساءا. حضر إليها في الميعاد، وظل معها في غرفتها عدة ساعات دار أثناءها الحديث بينهما

هادئا، بلا انفعال. كان يجيب عليها كأنه مسلوب الإرادة. حاولت أن تفهم منه الحقيقة لكنه ظل يراوغها، فإذا حاصرته لجأ إلى الصمت. تشعر أن ملامحه أصبحت قبيحة. في عينيه حزن الجاموسة فتندهش لهذا التغيير. تتطلع بإحساس من الغربة إلى جسمه القابع في المقعد بلا حيوية أو قوام.

بعد هذا اللقاء لم تفتح الموضوع مع أبيها. أدرك أن ما كان بينها وبين "فاروق" إنتهي فلم يحاول أن يسألها. مع مرور الأيام عادت الحياة إلى مجراها. أصبح يقلل من الساعات التي يقضيها في العمل، ويحرص على العودة قبل أن تطفيء الأنوار في حجرتها، فيتبادلان بعض الأحاديث العارضة، أو يقرآن في المجلات، أو تجلس على البيان لتعزف مقطوعة من الموسيقي.

في إحدي الأمسيات وجدها جالسة في حجرة المعيشة وعلى وجهها آثار دموع. جلس إلى جوارها ودون مقدمات أخذ يحدثها عن "فاروق الملاح" قال : "فوجئت به يطلبني في التليفون ويستأذنني في المرور عليّ لأمر عاجل. حينما جاء دار بيننا حديث عابر لمدة دقائق ثم ساد الصمت فشجعته ببضع كلمات على فتح الموضوع الذي جاء من أجله. بعدها إنهمر منه الكلام. حدثني عن حبه لك وعن رغبته في إسعادك، عن حرصه لإزالة أية عقبات تحول دون موافقتي على أن تصبحا زوجين إن كان هذا ما ستستقران عليه. ثم عرض عليّ خدماته مبديا استعداده لأن يقوم بأي شيء أريده. لا أعرف ما كان يرمي إليه. هيئ لي أنه قد يكون في ضائقة مالية شديدة ويأمل أن أساعده في التغلب عليها.

وجدت أنه يتحدث بطريقة عاقلة أرضتني فخطر لي أن أطلب منه التعاون في مجال يتعلق بالعمل الذي أشرف عليه ولمحت له فى سياق كلامى أن هناك معلومات تهمني كثيرا، وأنه إذا كان لديه الاستعداد في التعاون المخلص معي يمكنه أن يحصل على مكافآت مالية سخية فبدت عليه علامات الإرتياح. اتفقنا على موعد آخر أعرفه فيه بالضابط المسئول عن تتبع نشاط "التحالف الإجتماعي الديموقراطي"."

هل صحيح أن "فاروق" هو الذي سعي إليه أم العكس صحيح، أي أنه حاصره وضغط عليه ليتحول إلى شاهد في القضية ؟ فهي لا تستبعد على أبيها الكذب، ولا تستبعد أنه أراد أن يضرب عصفورين بحجر، أن يحوله إلى مرشد وشاهد في القضية وأن يحطم الشاب الذي تعلقت به فيحول دون الزواج الذي كان من المحتمل أن يتفقا عليه. عندما تفكر في كل هذا تشعر بالغثيان. كيف يمكن أن يكون أبوها هذا الكائن الذي يتعامل مع أبشع الجرائم وكأنها عادية؟! وكيف قبل الرجل الذي كانت تحبه أن يقوم بالدور الذي قام به ؟

إنتفضت في جلستها. ما الذي يجعلها تقبل أن تعيش مع أبيها في بيت واحد ؟ سر في أعماقها تتفادي أن تفكر فيه. هل تريد أن تراه وهو يعاني، أو وهو مريض؟ إنها مشاعر غريبة عليها، مع ذلك من يدري ؟ الإنسان كائن غريب، ففي بعض اللحظات تكرهه حتي النخاع ، وفي لحظات أخري تشعر نحوه بدفقة حنان. عقلها يقول كلنا ضحايا، نعم كلنا ضحايا حتي هو.

سحبت مقعدا ثانيا وأراحت فوقه ساقيها. تطلعت إلى الأفق. الحلم الذي بحثت عنه طوال السنين ضاع. ربما ما زال يختبيء هناك في الأفق البعيد. لا... لم تعد تؤمن بالأحلام. تحررت منها. كان لا بد أن تبتر علاقتها "بفاروق الملاح". انتحر لأسباب لا علاقة لها بها. إنتحر يوم أن تخطي عتبة الباب في مكتب أبيها. المهم هو أن تحافظ على فنها، عن موهبة ربما تنضج مع اللحظات المريرة. ستنميها في هذا المكان البعيد بالعمل المتواصل. شيء في داخلها سيتفتح كالزهرة في الربيع. تأملت الشمس وهي تسقط قرصا أحمر في بحر الرمال. السماء تشتعل والسحب كالدخان المصنوع من ذهب، وأرجوان. الليل يزحف ومعه يظهر الهلال فيه رقة كأوتار الكمان. النيران تنطفئ بالتدريج في السواد والعالم بين يديها ينام فيلفها السكون ولا تسمع إلا همس النسيم، ودقات قلبها تتردد بانتظام.

* * *

الفصل السابع

أصبحت أمتع لحظات اليوم تلك التي كان يقضيها في المخبز. يستمد منها إحساسه بالوجود. يسكب صفائح الماء على الدقيق. يغرس قبضتيه فيه فيتحول إلى عجين. يرفع الكتلة الهلامية الثقيلة في الهواء ويتركها تسقط في الوعاء فيصدر عنها صوت كطرقعة الكرباج. يثني قامته ويستقيم عشرات المرات فيشعر بالعضلات في ظهره وبطنه، وذراعيه وساقيه مشدودة، بالعرق ينهمر على وجهه وجسمه ويلسعه في عينيه، بالملوحة عند الشفتين يمسحه بمنديل وينثني من جديد. يري خليط الماء والدقيق يتحول إلى عجين طائع بين يديه. يتذكر أيام الطفولة. العجين مادة اللعب عند الأطفال والفنانين، وسيلة لاكتشاف الأشكال والتكوين، للتعبير عن الطبيعة وجسم الإنسان، عن عالم الذاكرة العميق. العجين، كالطين، كالجبس، كالصلصال، أداة فكر وخيال، أداة للخلق لذلك قيل أن الله عجن قطعة من الطين ثم نفخ فيها فكان الإنسان.

أحب منظر العجين يرقد مرهقا مستلسما في الوعاء ثم وهو يرتفع بالتدريج بعد أن يضيف إليه قبضة خميرة. أحب الجهد الجماعي مع آخرين يرتفع قوامهم وينثني بنفس الحركة المنتظمة. يري العرق يسيل على وجوههم، والعيون تضيق وخصلات الشعر الناعمة، أو الخشنة، السوداء أو البنية اللون، أو المعروقة بالشيب تهتز مع حركة الجسم وتلمع في ضوء المصابيح. أحب الإحساس بالرضي بعد الجهد، ومنظر الأقراص المستديرة المرصعة على لوح من الخشب وهي تدخل الفرن كالأقمار الشاحبة اللون، ثم وهي تخرج منه وقد لفحتها النار بسمرة النضج فتشبه وجوه الأطفال على شاطئ البحر. أحب الشعور بأن من بين يديه يخرج الخبز.

بعد أيام من انضمامه إلى فرقة الفرن لاحظ وجها جديدا إلى جواره فتذكر الشاب الذي ساعده من قبل. لم يبد على الشاب أنه عرفه. لم يُحيه، ولم يتبادل معه الحديث. فاندهش. تري لماذا التحق بالمخبز بعد انضمامه إليه؟ هل أرسله المشرف العام للتجسس عليه؟ لكن في إحدي الأمسيات أحس "حمدان" بعيني الشاب تتجهان إليه بنظرة فيها رسالة. رفع "حمدان" قامته ليستريح. فك المنديل المربوط حول عنقه ليمسح عرقه، فتوقف الشاب عن العجن، ثم التفت إليه فتلاقت عيونهما. لم يقل أحدهما شيئا للآخر وبعد قليل إنحني كل منهما ليستأنف العجن كأن الكلمات فقدت مدلولها وعليهما أن يتفاهما بلغة جديدة هي لغة الصمت.

أحس "حمدان" أن هذا الشاب لا يمكن أن يكون جاسوسا. فهاتان المقلتان السوداوتان، وهذه النظرة الصافية المتأملة، وهذا الفم الممتلئ بالعطاء صالحة لأي شيء ماعدا ما يتطلب من صاحبها نذالة أو جبن. بدا له كأنه يعرفه منذ زمن بعيد، أن كل منهما كان يسير في مجري مختلف. فصلت بينهما الولادة، والمسافات، والأحداث، وسنين العمر لكنهما كالروحين التوأمين خلقا من المعدن نفسه، ومن المتخيل نفسه فأصبحا قادرين على التفاهم بحركة العيون، والملامح والجسم. ارتبطا بمصير واحد في هذه البقعة الصغيرة عند أقصي جنوب الصحراء الغربية، قرب "طريق الأربعين" ، بقعة ربما لم تعد تطأها قدم إنسان أو ترفرف فوقها أجنحة الطيور، أو تزحف عليها حوافرَ الجمال.

منذ ذلك اللقاء الصامت أخذا ينصرفان سويا بعد الإنتهاء من وردية العجين. يخرجان من الكشك والفجر فوق السماء شريطا رماديا يتسع بالتدريج. أقدامهما على الرمل وقعها مريح ، وآذان الفجر يحمله النسيم، وصوت المؤذن رنان حزين فيتذكر وجه أمه وهي تميل عليه ، أو أصابع الحبيبة تتلمس جبينه ثم تزحف إلى مواضع اللذة والألم العميق، أو زهورا كان يرويها، أو حديقة، أو كلمات كان يكتبها في جريدة، أو قصيدة، أو غيط أخضر من البرسيم، أو خطواته فوق الرصيف وهو يقترب من البيت.

يخلعان ملابسهما تصلبت من اختلاط العرق والدقيق. يغتسلان تحت صنبور المياه تنعشهما ببرودة الليل المختزنة فيه. تبرق عيونهما بسعادة الوجود، والمجهود، والسكون يرقد على

أنفاسهما خفيفا، سكون لا يقطعه سوي خرير الماء وأقدامهما فوق الرمال تتحرك مرهقة، حريصة.

كانا يستيقظان في سواد الليل قبل وردية العجين بمدة قصيرة. ينتظره الشاب خارج الخيمة ثم يتوجهان إلى الكشك كالشبحين يخترقان الظلام في أثوابهما البيض. عند الإنتهاء من العجين يخرجان من الباب، "حمدان" الأول لأنه أقرب إليه، ثم الشاب. تتبعهما العيون بفضول، أو بالريبة، أو الغيرة. يغتسلان تحت الصنبور القريب من الكشك ويجففان جسميهما بمنشفة كبيرة. الشاب الأول وبعده "حمدان". يرتديان ملابسهما النظيفة، سروالا من القطن، وقميصا، وشالا يلفه كل منهما حول رأسه ليقيه من الشمس، ثم يجلسان القرفصاء على الرمل. يولي كل منهما ظهره للخيام، ويتأمل الأفق خلال الأسلاك الشائكة الممدودة بين العواميد. لا يتلامسان بالكتف، أو الذراع، أو اليد، أو الساق، ولا يتحركان كأنهما ينتظران شيئا قد يظهر في أية لحظة، أو كأنهما يشاهدان شروق الشمس، وأصابعها الذهبية أو القرمزية وهي تخترق السحاب، وتصبغ رمال الصحراء بألوانها. يبدو عليهما الانبهار كأن الطبيعة تظهر لهما كل يوم في ثوب جديد. وبعد أن يسري الدفء في الكون يقومان من جلستهما ويتوجه كل منهما في اتجاهه ليغيب وسط الخيام.

مع الأيام أخذ يتملكهما أحساس مشترك، شيء كالدودة الدقيقة تتحرك في أعماقهما، تطل برأسها، وتحركه في مختلف الاتجاهات كأنها تبحث عن مخرج وتبذل جهدا لتنتزع جسمها من

مكانه لكنها تتعثر وتختفي كأنها سقطت في بئر، ثم تعيد الكرة من جديد.

في أحد الأيام بعد أن ارتديا ملابسهما وجلسا يتأملان المساحات الرملية أخذت الدودة تتحرك بقوة غير عادية، كأنما تريد أن تفلت من ظلمات العقل الباطن لتخرج إلى النور، ليصبحا واعيين بوجودها. أيقن كل منهما أن ما يحدث يحدث لهما هما الإثنين، لكن كعادتهما لم يقولا شيئا. أحسا في الوقت نفسه أنه عند نقطة معينة في الأفق يوجد شيء، أو شخص، أو روح تتطلع إليهما، كأن نظراتهما المشحونة بالرغبة في رؤية ما لم يره أحد أصبحت قادرة على التقاط ما لا يلتقطه غيرهما. وفي لحظة معينة أدركا أن هذا الشيء، أو الشخص، أو الروح التي لا تري بالعين المجردة صارت تتحرك هي الأخري بذات الحركة التي حدثت في أعماقهما. عندئذ تبادلا النظرات فقد أيقنا أن تغيرا في الحياة سيقع. أن بقاء اللاحركة ، أن استمرار التكرار الممل مستحيل، فلا يمكن أن يتحولا مثل غيرهما إلى أجسام تنام في الخيام، وتأكل في الصوان ثلاث مرات في اليوم خبزا، وعسلا أسود، وجبناً أريش، وفولا، وبصلا، وتتبرز في دورات المياه وفقا للمواعيد المخصصة لها، وأن تقول اليوم ما قالته بالأمس. أن عليهما أن يخترقا الحصار، أن يلتفتا إلى الحركة الدودية التي أثارت فيهما الاضطراب، إلى أهمية استعادة ذكريات، وتجارب السنين الماضية حال دونها الوقوف في طوابير العيش، والجلوس فوق أسطح القطارات، والوقوع فى فتحات المجاري ، والإختناق تحت

البيوت المنهارة، ومحاولة اللحاق بالأسعار الصاعدة، وأخبار الصحف عن القتل، والإغتيال، أو عن الخصخصة، وبيع الأوطان، أو السوق السوداء، أو باروكات المذيعات، أو تأوهات مطربي الشباب، أو أرداف بنات الفيديو كليب، أو ميكروفونات الوعاظ ، أو وجوه بوش، وشارون ، وسماسرة الأمريكان.

ذهب "حمدان" مرة أخري إلي "المشرف العام". ولسبب غير مفهوم استقبله هذه المرة بترحاب. أدرك أن حقيبته السوداء لم تكن معه في هذا اليوم فبدا وكأنه تخلص من الأثقال التي يحملها معه. فقد كان دائم الإنشغال بفتحها والتطلع إلى محتوياتها، وتقليبها، وترتيبها، وإعادة ترتيبها، والبحث عن أشياء فيها. ونظرا لكثرة أعماله كان يهمل فحص محتوياتها لفترات طويلة ففي مرة من المرات نسي فيها سروال العشيقة التي حملها معه كذكري فوقع السروال على الأرض وهو يخرج منها أوراقه أثناء إجتماع من الإجتماعات.

ابتسم له في ود وقال :

"أهلا يا "حمدان". كيف الحال ؟"

"على أحسن ما يرام".

"لكن أليس العمل في الفرن شاقا؟"

"شاق ولكني أحبه".

بدا عليه الضيق كأن الرضى البادي على وجه "حمدان" أغاظه.

"لماذا جئت إذن؟"

"من أجل موضوع القلم والورق. لم أتلق منك ردا رغم مرور أكثر من ثلاثة شهور".

"قلت لك أنها مسألة حساسة لا بد من عرضها على "القومندان"، ثم على مجلس الإدارة. والقومندان كما تعلم جديد ومشغول بالتعرف على كل ما يدور في المعهد. كما أن هناك مسائل أهم بكثير من منحك ورق وقلم. ليس الذنب ذنبي. رفعت الموضوع وعند هذا الحد تنتهي مسئوليتي".

"لكن أنا شاعر والورقة والقلم بالنسبة إلي كالتنفس".

"من أين لنا أنك ستكتب الشعر الذي يتفق مع سياسة المعهد. سمعت أنهم أرسلوك إلينا لأنك تكتب شعرا تحض فيه الناس على التمرد. ثم لماذا الورق والقلم؟" ضحك ضحكته الجافة "أكتب على الرمل يا أخي".

"وما رأي "القومندان"؟"

"لم أسأله. "القومندان" لا يسأله أو يسائله أحد. إنه مندوب الحاكم العسكري في هذه المنطقة".

تأمله "حمدان" لحظة طويلة، ثم استدار وخرج من الخيمة. توقف في الخارج. رفع عينيه للسماء. كانت صافية زرقاء. لماذا "الزعل". جو الصحراء في بداية الشتاء فيه هذا الصفاء المبهر. إنه مثل الجو على ضفاف النيل، يرتادها العشاق ويدفئون أجسامهم في الشمس جالسين على الدكك يتهامسون.

وصلا إلى حديقة الإندلس. كانت تتدلي من كتفه حقيبة صغيرة وضع فيها ساندوتشات الفول، والطعمية، والشاورمة

ابتاعاها من "قلفلة" وأحضرا معها ترموس شاي، وورقاً وقلماً. يشعر بأصابع "كريمة" تبحث في كفه. يستنشق رائحة الياسمين في شعرها. لم تدم حياتهما معا طويلاً. كانت كالجمرة تدفئه وهى تحترق. إنتزعها من كفوف الراحة والغنى إلى حياة الفقر فقضي عليها. لم يقدر أن الحياة ليست تمردا وكلمات على الورق فقط. أراد أن يروي عطشه للحب فقتلها. في الصباح كان يتوجه إلى معهد الآثار ليجلس في غرفة كئيبة خلف مكتب مع أربعة آخرين ، وتذهب هى إلى كلية الزراعة. كانت تحب الزهور والفواكه والطبيعة، فأزقة المدينة تخنقها ، والحجرات بالنسبة إليها قبور والسحابة السوداء تربض على صدرها. مع ذلك كانت كالطائر تتحرك، وتتحدث ، وتغني. عندما يعود من العمل كانا يعدان طعامهما، ومرتان في الأسبوع ينظفان حجرتهما ملحق بها مطبخ صغير، وحمام منفصل على سطح البيت سعدت به لأنه كان يطل على الغيطان ، وأحاطت سوره بصندوق زرعت فيه البازلاء والقرنفل وعود من الياسمين يصعد فوق جدار الحجرة. في المساء يشاهدان الغروب، ويقرأ لها أشعاره تغنيها بصوت فيه بحه تسري في جسمه ، أو يتحدثان عن بحث تشارك فيه لاستنباط نوع من الورد البلدي لا يموت بسرعة بعد قطفه.

في ذلك الصباح خرج من باب الغرفة إلى السطح ليستنشق الهواء فوجدها جالسة على مقعد من الخيزران ، وجهها شاحب ورأسها مرفوعة كأنها تتحدي عدوا لا يراه. على المنشفة البيضاء

الموضوعة على حجرها بقعة حمراء. توارت الدنيا من أمامه. لم يبق منها سوي وجهها الشاحب والبقعة الحمراء جسدتا ألوان المأساة. أحس بالموت يطل عليهما من سماء صافية كأنه تخفي في جمال الصباح ليغدر بهما.

أخذها إلى مستشفي إمبابة في سيارة للأجرة عثر على سائقها خارجا من بيته وبدأت الدائرة الجهنمية. تحاليل للدم، والبول، والبراز، وأشعات، وكشف في العيادات، وفي البيت، وفي حجرات المستشفي. جسمها النحيل ممدود على كنبة من الجلد الأخضر، أو على مفارش السرير البيضاء. حقن، وأقراص وإبر في الوريد، وزجاجات من الدم معلقة على حامل طويل، وحجرات إنتظار كئيبة يطل فيها المرض من العيون، ومن الملامح، ومن الجدران، ومن الأقدام. رائحة المطهرات، والقئ والمخاط. موت مدفوع الثمن، مكتوب في برواز مذهب يحيط بمساحة بيضاء أعلاها كلمة "الله" وأسفلها كشف الأتعاب. كشف عادي، وكشف خصوصي، وكشف بالمنزل، وكشف مستعجل، ثم المواعيد، وأرقام التليفونات، وعلى المائدة مجلات سنة ١٩٨٢ فيها جنود، ودبابات وصورة "آريل شارون"، القميص المفتوح والبطن بارز فوق "البنطلون". ملامح الجنرال تاجر الموت في لبنان، والموت في كل مكان، في الكشف المستعجل كالقضاء المستعجل. الموت يحلق فوق وجه "كريمة" الشاحب. تنظر إليه في أسي كأنها مسئولة عما جري، مسئولة عن عذابه، ارتكبت في حقه خطأً فادحا. حول معصمها

الــناحل الساعة التي اشتراها لها من "سكة المناخ" تعمل ببطارية دقيقة دقة الحياة ، دقة الشعرة التي تفصل بين الوجود والفناء.

ماتت بعد خمسمائة وتسعة وخمسين يوما من زواجهما المعلن على رؤوس الأشهاد. ماتت وهي ترتدي الثوب الأبيض الذي خرجت به من بيت أبيها مقاول الأنفار. وضعت يدها على كتفه وذراعها حول عنقه كأنها تريد أن تقترب منه على قدر الإمكان. رائحة شعرها في أنفه لم يعد كما كان. فيه رائحة الكفن. قلبها تحت قلبه يهرب منه، فيحبس أنفاسه حتي يلتقط دقاته. يهيأ إليه في لحظة أنها تعود، أنها عادت، وفي تلك اللحظة رفعت نفسها بحركة فجائية لتلتصق به. فتحت عينيها كالطفل الخائف من شبح رآه وهمست في أذنه.

"وداعا يا "حمدان"."

ثم أغلقت عينيها وغابت.

جلس إلى جوارها حتي الصباح. عاجز عن الحركة، عاجز عن البكاء. لم يحضر أحد من أهلها للسير في الجنازة أو للعزاء. بعض الأصدقاء، وعدد من أقاربه من العزبة أو من "طنطا"، وآخرون جاءوا من أين لا يعرف، ربما جيران، ورجل عجوز شعره أبيض وعيناه تلمعان ربت على كتفه وقال :

"إن لله وإنا إليه راجعون".

صفوا المقاعد في الشارع. الريح ساخن، والجو رطب، وخانق. جلس يفكر. "كريمة" أين هي الآن؟. تركته إلى الأبد؟ حقيقة وليست حقيقة. وهم آخر من الأوهام. لا.. لن تفارقه أبدا.

أحبها بكل ما يملك من قلب، وخيال. أحب شعرها الطويل المنسدل، وعينيها العسليتين. أحب نهديها كالحمام الدافئ، وقوامها الشامخ. أحب أخلاصها، وإندفاعها وتفتحها للحياة.

ساروا في الجنازة. كانوا خمسة أو عشرة أو أقل أو أكثر لا يتذكر. بؤسه متجسد في الموكب الصغير، وفي القلب يحمله بين ضلوعه كاليتيم. أنزلوها في القبر. هبط أحد الأقارب ليقص الكفن. أمسك بحفنة تراب وألقاها كالإشارة فأهالوا عليها الأسمنت والحجارة. خنقوها تحت التراب وأكفهم مرفوعة للسماء وشفاههم تبسمل. ظل ساكنا ثم فجأة صرخ. صرخ بصوت لم يسمع أحد مثله من قبل، صوت الغضب المتمرد على الظلم. صوت يلعن الكون، والقدر، وحياة البشر، ومشيئة الرب ثم بكي.

*　　*　　*

الفصل الثامن

الزمن فى الصحراء لم يعد هو الزمن. حولته إلى نوت فى كراريس الموسيقى، إلى نغم، إلى صوت الكمان فيه رقة، وتمرد وشجن. هامت بالصحراء، بالمساحات المفتوحة فوق رأسها، وتحت الأقدام. غاصت فيه بكيانها، فى الشروق، والغروب، والليالى تعرض نجومها، فى النسيم يبعثر شعرها. هامت بالوجود، بالصمت كأنها تكتشف لأول مرة دقات قلبها ، أن لها ساقين طويلتين، وقدمين تسيران بها فوق الرمل بوقعهما الخشن. أن لها بشرة تلفحها الشمس فيكسوها السمار. هامت بجسمها القوى، وعينيها، وشعرها يشع منه الوهج ، بأصابعها تمسك بالقوس وتولد النغم، بفنها يتدفق كأنه اكتشف نبعاً مدفونا فى نفسها.

شئ واحد فقط كان يقتحم صفاءها. ذلك المعهد الذى عين أبوه "قوماندانا" له. لم تره حتى مرة واحدة. أحياناً كان يبعث فى خيالها بخيامه، وحراسه، وأسلاكه الشائكة ، بالوجوه تطل منها مرهقة ، فقد أصدر أبوها أوامر صارمة. هذا المكان مغلق أمامها يجب ألا تقترب منه، ألا تراه حتى من الخارج. من حقها أن

تتجول كما تشاء، وفى اى اتجاه حتى فى المناطق التى تحوم فيها الذئاب، ماعدا ناحية الشمال ، ما عدا فى تلك النقطة البعيدة التى تحملق فيها أحياناً لمدة ساعات دون أن تراها مجسدة كأنها سراب، أو بؤرة متحركة كلما نظرت إليها تراجعت كالزئبق أمام أصابع اليد يتدحرج بعيداً عنها ، كالأحلام التى لا يتذكرها الإنسان بعد أن يستيقظ.

مرت الشهور وهى منشغلة بالموسيقى وبالكتب التى حملتها معها أو التى تأتيها من القاهرة. لكن مع الوقت بدأت تقوم برحلات فى جوف الصحراء، وبزيارات إلى الواحات، فأصبحت لها علاقات مع بعض السكان أطلقوا عليها وصف "إبنة القومانداn". قالوا أنها تشبه المهرة ، رأسها ترفعها فى حركة تمرد عندما يصيبها الضيق، وخطواتها على الرمل كالقفز أو الرقص سريعة، لينة. عندما تصل يقف شباب الواحة عن بعد وينظرون إليها فى استطلاع بينما يتجمع حولها النساء، والأطفال. تجلس بينهم على حصيرة من الخوص تحت النخيل والأشجار. يتحدثون معها، ويضحكون. يحكون لها عن شئونهم ثم قبل أن تغادر يحملون إليها سلالاً صغيرة من البلح أو العنب، أو التين الشوكى أو الرمان حسب الموسم، أو لفات من جبن الماعز والخبز ، أو لحم الأبقار له مذاق حلو لأنهم يطعمونها بالتمر. تدفع لهم بالنقود لكن أحياناً تجلب إليهم سلعاً يحتاجون إليها، أقمشة ملونة، أو أدوية، أو إبر أو مفارش أو كتب أطفال. تحملها سيارة الجيب التى تنتقل فيها معبأة فى علب.

مع مرور الأيام تعرفت إلى بعض رجال البدو الذين يسافرون إلى ليبيا أو السودان فى القوافل. كانوا يتحدثون إليها عن مسالك فى الصحراء لا يعرفها غيرهم. فى بعض الأيام يصطحبونها فى رحلات لصيد الغزلان ويشيرون إلى آثار أقدامها فى الرمل لا تراها هى.

كان أبوها قد عين لها أربعة حراس من المدربين على السير فى الصحراء ، واستخدام السلاح بإتقان. كانوا يتناوبون على حراستها أثناء هذه الرحلات تكررت بعد إنتهاء الصيف وموسم العواصف. حرص على أن يكونوا فى مقتبل العمر ومتزوجين حتى يكون أكثر أطمئناناً إليهم. كانت تكره الإحساس أنها خاضعة للرقابة لكنها أدركت أن الحرص فى هذا المكان الموحش واجب، مكان فيه مساحات واسعة فقد تتوه فى مسالك الصحراء، أو تهاجمها الذئاب، أو تلدغها طريشة. كانت تدرك أنه يعشق هذا الإحساس بأنها محكومة بإرادته، وأن عيونه ساهرة لكن لم يكن هناك سبيل أمامها لرفض هذه الحراسة. كانت تنتهز أية فرصة للتخلص منهم خصوصا عندما تتحرك فى المنطقة المحيطة بالاستراحة، أو عندما تتجول داخل الواحات، وبالتدريج عودت الحراس على هذا الوضع. كانت تستميلهم بهدايا من السجائر، أو مبالغ من المال الذى سحبته من البنك قبل الرحيل. علمتها الصحراء أن تتصرف فى الخفاء، أن حركة الرمال لا تلاحظها العين لكن الزحف البطئ لملايين الملايين من جباتها الدقيقة يُؤدى إلى تحويل مساحات كانت آهلة بالسكان، عامرة بالقمح، والنبيذ،

والخيرات إلى أرض قاحلة. هكذا دفنت وديان وأزالت حضارات أصبحت ترقد تحتها فى الخفاء.

عندما تفكر فى حياتها الجديدة يصيبها الإندهاش. ما الذى دفعها إلى تقبل هذا الوضع الشاذ، أن تقطع صلتها بالأصدقاء والناس، أن تحيا وحيدة فى قلب الصحراء؟ فى البداية كانت فريسة للتساؤلات، للشك فى صحة القرار الذى اتخذته. هل قصتها مع "فاروق" هى التى دفعتها إلى دفن نفسها فى هذا المكان؟ لا.. ليس هو السبب. شئ آخر فى الأعماق، إحساس تلقائى غامض، حاسة ما. مع الوقت راح الشك وبطلت التساؤلات. أدركت أن قرارها كان سليماً. أتاحت لها الصحراء ما لم تتحه لها المدينة والأضواء ، ساعات من التأمل إستخرجت فيها ما اختزنته فى نفسها، وكأنها تتعرف عليها، وعلى قدراتها لأول مرة. لم تعد فى حاجة إلى أن يسمع أحد ألحانها فمن ينجب هو أول من يرى مولوده، أول من يدرك ما فيه من قوة وضعف، أول من يسعد أو يتعذب لما يراه.

أحست أنها تعيش السعادة الحقيقية. مع ذلك خيط رفيع كالدودة كان يتلوى فى أعماقها ويثير فيها الاضطراب. ليس له مواعيد، يجئ لحظة ثم يختفى لكن مع الوقت لاحظت أن هذا الإحساس يجيئها عندما تجلس على الشرفة وتتطلع إلى الخط الفاصل بين الأرض والسماء، إلى نقطة معينة فى الأفق الممتد شمال المكان الذى توجد فيه الإستراحة. ربما لأنه فى تلك اللحظات تستغرق تماما فى تخيل ما تراه فعقلها غير منشغل بشئ

آخر، بالموسيقى أو الكمان، بالصحف أو المجلات التى تصل إليها كل أسبوعين، بإذاعة إسرائيل تلتقطها بوضوح، وأخبار القتلى فى العراق، بالإشراف على الشغالة والعساكر فى تنظيف البيت، ورى الحديقة وتنسيق الأحواض، بإعداد رحلاتها فى الصحراء أو حتى بالسماء والرمال عندما تبزغ الشمس أو تسقط فى الصحراء. لكن عندما كانت تصعد الشمس فى السماء وتلتقى الزرقة الصافية بالرمال الصفراء، ويستقر الخط الأسود عند الأفق، عندئذ كان يغمرها الإحساس بأن كل شئ فى الدنيا توقف استعدادا لحدث قادم فتشعر بنوع من الرهبة لكن بعد قليل تزول الرهبة ويحل محلها الانتظار لشئ لا تعرفه ، تتصوره فى عشرات الأشكال فتظل عاجزة عن تصوره، عن الإمساك به وتجسيده. أحياناً يبدو لها أن عند النقطة التى ركزت عليها عينيها يد تمتد إليها فتتحرك شعرة القلق فى أعماقها مثل الدودة الرفيعة تنهش فى سكينة الفؤاد.

فى أحد الأيام استيقظت قرب الفجر. كان كل شئ معداً لرحلة إلى الواحات الداخلية، وكانت سيارات جيب ثلاث تنتظرها فى الحوش. هبطت السلالم من الشرفة لتسقى الزهور قبل أن تبدأ رحلتها، فوجدت حارسين يجلسان على دكة من الحجر الأبيض. كانا يتطلعان إلى الأفق وكأن شيئاً لفت نظرهما. عندما لمحاها انتفضا واقفين فأشارت لهما بالجلوس. أمسكت بالخرطوم وفتحت الصنبور فتدفقت المياه، وفى تلك اللحظة لاحظت شيئاً فى ملامحهما، شيئاً كالجمود المتوتر للصياد قبل أن يطلق بندقيته.

أقدامهما فوق الأرض تتأهب للتحرك، وأصابعهما حول البندقية بيضاء اللون كأن الدماء هربت منها. وقع الخرطوم على الأرض فتسربت المياه فى الرمل. حملقت فى الاتجاه الذى كانت نظرتهما مثبتة عليه. لمحت نقطة صغيرة مثل ذرة من التراب تتنقل مسافة قصيرة ثم تختفى أسرع من طرفة الجفن. دعكت عينيها ثم نظرت إلى الحارسين أخذا يغلقان جفونهما فى حركة التأرجح بين اليقظة والنوم.

أغلقت الصنبور وصعدت السلالم إلى الشرفة بقفزات سريعة. قلبها يدق دقات عنيفة. اجتازت الصالة إلى باب الاستراحة الرئيسى ونادت على العريف الذى كان ينتظر فى الحوش. أخبرته أنها قررت تأجيل الرحلة وأن عليه أن يخبر المركز فى الواحة أنها ستحدد موعدا آخر، وأن يطلب من الضابط النوبتجى توصيل الرسالة إلى البدو الذين كانوا ينتظرون حضورهم ، ثم دخلت إلى غرفتها. خلعت الحذاء برقبة التى كانت ترتديه، والجراب، والحزام، والبنطال المصنوعٍ من "الجباردين" الخفيف والقميص الكاكى اللون، وارتدت جلباباً من القطن. فتحت النافذة الشمالية العريضة ورقدت على الكنبة العالية. أحست بالنسيم يتسلل إلى جسمها تحت الثوب ، وبعد قليل سقطت فى شبه سبات رأت نفسها فيه بنتاً صغيرة ترتدى مريلة وتعلق على ظهرها حقيبة. أمامها يمتد طريق طويل تسير فوقه وإلى يمينها مياه تجرى تراها تبرق فى الشمس بين فروع الشجر والبوص. تحت قدميها زهور تتفجر بأصوات مكتومة كلما داست عليها وفى أذنيها وقع خطوات تسير

إلى جوارها فالتفتت. رأت صبياً فارع الطول يرتدى ثوباً أزرق اللون يشبه ثوب المساجين. كان يحمل فوق كتفه وعاءا معدنيا وفى يده كوب. انزل الوعاء من على كتفه ونزع عنه الغطاء ثم ملأ منه الكوب بلبن حليب. لمحت لونه الأبيض والفقاقيع تفور على سطحه. أخذت منه الكوب. رفعته إلى شفتيها وشربته ثم مدت يدها لتعيده إليه. وجدته وقد اختفى كما جاء دون أن يقول شيئاً. أحست بالحزن فأخذت تبحث عنه بين الأشجار وفجأة وجدت نفسها سائرة فوق رمال الصحراء تائهة فى المسافات بينما الشمس غابت والدنيا أصبحت ظلام. مع ذلك لم تكن خائفة. أحست أن النهار آت بعد قليل، وأنها ستجده فى الواحة واقفاً وسط الأشجار.

إستيقظت لتجد ضوء القمر يزحف فوق السرير. إندهشت كيف واصلت النوم طوال هذه الساعات. شعرت بالنشاط وبعد قليل تملكها الجوع فقامت من السرير وسارت على قدميها الحافيتين حتى المطبخ. فتحت الثلاجة وأخرجت منها وعاءاً فيه عدس مطبوخ باللحم، وعلبة تحتوى على جبن الماعز، وإناءاً من الصينى وضعت فيه قطعا من الخيار، والطماطم، والخس. بحثت عن سلة الخبز المحمص إلى أن وجدتها على رف. وضعت كل هذا على المنضدة الرخامية وجلست تأكل بأصابعها. كانت تمضغ ببطء، مستغرقة فى إستعادة الحلم الذى إستيقظت منه. بعد أن أنتهت من تناول طعامها وضعت الأوعية والأوانى فى الحوض، وغسلت يديها، ثم أطفأت نور المطبخ، وسارت حتى الصالة.

عبرته مرهفة السمع لأى حركة تصدر من غرفة أبيها. فتحت باب على يمين الصالة متحسسة طريقها فى الظلام بحرص حتى لا تصطدم بشئ. أغلقت الباب وراءها، وأضاءت مصباحاً للقراءة فلمحت الكمان يشع خشبه ببريق غامض. أخرجته من الصندوق. أمسكت بالقوس بين أصابعها ووقفت مترددة كأنها تفكر فى شئ. فتحت النافذة وخرجت منها إلى الشرفة. سارت فوق البلاط إلى الطرف البعيد. رفعت وجهها إلى القمر لتتركه يغمرها بالضوء. أسندت الكمان على كتفها وأخذت نفساً عميقاً ثم أسندت القوس فوق أوتاره، وفجأة فى سكون الليل تدفق النغم صاعداً إلى السماء، زاحفاً فوق الرمال وحيداً، جميلاً، متزايد الجمال.

* * *

كان "حمدان" راقداً على الرمل فوق غطاء من الصوف مستمتعاً بالرقة المتناهية لليالى الصحراء فى الصيف، بالنسيم يحرك خصلات شعره، ويتسلل بين أصابع القدم وتحت الثوب فيبث فيه استرخاءاً لذيذاً لا يعرفه إلا الذين ناموا فى عراء الصحراء أثناء الليل. السماء فوقه قبة سوداء تنبض فيها النجوم، والقمر يطل عليه فى لا مبالاة حزينة، ويلف سطح الرمال بغلالة تتحرك فيها تكوينات غريبة تظهر ثم تختفى هاربة منه ، كأن خياله يصنع عالمه ، ويسكنه بالكائنات التي تتركه لتنطلق فى الفضاء بعيداً عن الحصار المفروض عليه.

وفجأة فى سكون الليل جاءه صوت الكمان وحيداً، جميلاً، متزايد الجمال، فقام من رقدته وجلس يرهف السمع.

الفصل التاسع

ظل ساهراً طوال الليل وفى الصباح بعد أن تناول أفطاره تذكر أنه مرت ستة شهور منذ أن جاءوا به، وأنه لم يحصل حتى الآن على الورق والقلم اللذين طلبهما منهم. قرر أن يذهب مرة أخرى إلى المشرف العام، أو أن يلجأ إلى رئيس إتحاد نزلاء المعهد عادت إليه صورته جالساً على المنصة فى الصوان وقد خلع حذاءه.

وجد المشرف العام جالساً القرفصاء على الرمل ونصفه الأعلى عار كأنه يعرضه للشمس. كان يبدو عليه الإستغراق وهو يدس يديه فى ثنايا القميص الذى خلعه. بين الحين والآخر كانت تلعب إبتسامة راضية حول شفتيه. عندما إقترب منه التقط صوتاً كسقوط إبرة على البلاط يصدر من بينٍ أصابعه. أدرك أنه مشغول بتفلية قميصه من القمل فخاطبه قائلاً.

"صباح الخير يا سيادة المشرف العام. خلى عنك"..

بدا عليه الضيق. لم ينظر إليه لكن يديه توقفتا عن البحث فاستطرد "حمدان".

"أراك مشغولاً.. لن آخذ من وقتك كثيراً. جئت أسألك عن شئ".

"ما هو؟"

"طلبى الخاص بالورق والقلم؟"

صمت المشرف ثم سأله :

"ماله ؟"

"قدمته منذ أكثر من ستة أشهر ولم يحدث فيه شئ".

"هل قدمته لى ؟"

"نعم بالطبع".

"مكتوباً ؟"

"كيف أقدمه مكتوباً وأنا لا أملك ورقة، وقلم."

ألقى بالقميص جانباً وقال.

"أوضحت لك عدة مرات أن ما تطلبه منى ليس سهلاً. لابد أن يعرض على مجلس الإدارة، وأن يقره "القومندان". والمعهد هنا خاضع لقانون الطوارئ. أنت تدعى أنك تريد أن تكتب شعراً، لكن من يدرى أنك لن تستخدمهما فى الإتصال بالبدو".

"فلأقابل "القومندان"، وأناقشه. ربما أقتنع".

"القومندان يرفض أن يقابل أحدا من النزلاء، ماعدا رئيس اتحاد النزلاء".

"أذن سأذهب إلى رئيس الإتحاد".

تركه وسار ببطء فوق الرمل. أبيات القصيدة تتدفق من أعماقه منذ الليلة الماضية. يتغنى بالكلمات على وقع خطواته فوق

الرمل، والحصى فيضحك فى سعادة. قتله الجدب طوال الشهور الماضية. لماذا ظن أنه فى حاجة إلى الورقة، والقلم؟ سيكتب كلماته على الرمل ويحفرها فى الذاكرة. توقف عن السير، ونظر حوله. رفع ذراعيه فى الهواء ودق بالقدم على الأرض. أخذ يرقص ببطء وبالتدريج أسرع كأنه يطلق من جسمه كل الطاقة المكبوتة، كل القدرة على النغم، كل التمرد على القهر عانى منه منذ زمن. صوته يغنى مع دقات القدم، مع طرقعة الأصابع، مع الجسم يميل مثل الغصن. توقف السائرون جماعات مثل عناقيد العنب ، وفى عيونهم فضول، أو سخرية، أو أمل ، ثم إستأنفوا سيرهم واختفوا ماعدا الشاب ظل واقفاً يستمع إلى صوته يرتفع أعلى، وأعلى فيكتسح من قلبه كل الحزن، والألم ، ويراقب جسمه يموج مع النغم فتنهمر منه نقاط العرق.

بعد شهور عندما جاءوا بالكلاب ليقتفوا أثره سارت مسافةً وعلى مقربة من السور حيث توقفت نقاط العرق توقفوا ورقدوا على الأرض دون أن ينبحوا.

* * *

الفصل العاشر

منذ اليوم الذى جاء فيه إلى المعهد مر صيف، وخريف، وشتاء، وربيع وصيف جديد فبدا له أن الزمن يتحرك كالسلحفاة.

كان يذهب إلى كشك العجين فى الساعات الأخيرة من الليل. كل شئ ساكن كأن الكون كتم أنفاسه. ينصرف مع الشاب عندما ينسلل الشريط الرمادى اللون فوق السماء. يغتسلان ثم يرتديان ملابسهما البيضاء. يجلسان على الرمل يتابعان صعود الشمس وعيونهما متجهة إلى الأفق ناحية جنوب الشرق لتلتقط حركة الأشياء عند الخط الفاصل بين السماء والأرض. وبعد ساعة أو ساعتين أو أحياناً ثلاثة يقفان، وينصرف كل منهما إلى ما يريد أن يقوم به. ومنذ تلك اللحظة فيما عدا الفترات التى يقضيها فى تناول الطعام، أو القراءة أو التحدث مع أحد النزلاء أو الحراس كان يبقى "حمدان" وحده يسير فوق قدميه حول السور كأنه يبحث عن شئ، أو ينزوى فى مكان مهجور.

أصبح نزلاء المعهد ينظرون إليه وكأنه شخص غريب الأطوار، شاذ، متعال عليهم. كانوا يفضلون التجمع فى الصوان،

أو فى الكافيتيريا يستمعون إلى الخطب، أو المحاضرات، أو يلعبون النرد، أو كرة الطاولة، أو يشربون أقداحاً من الشاى، أو القهوة ويدخنون لفافات لا حصر لها من التبغ فتختفى الوجوه، والملامح، والأجسام، ومعالم المكان خلف سحب الدخان.

كان النشاط المفضل لهم هو الثرثرة. وكانت توجد عدة فرق تتجمع فى الصوان بعد موعد الإفطار. لكل فرقة مائدة ومقاعد مخصصة لها. لوحظ بعد مرور الوقت أن المقاعد التى يجلسون عليها إتخذت شكل أجسامهم فأصبح النزلاء يتعرفون عليها، ويقولون هذا مقعد "فلان" لأنها غدت طويلة نحيلة، أو قصيرة مكتنزة، أو عرجاء أو فى ظهرها كتف أعلى من الكتف، أو مائلة على جانب، أو تصدر عنها رائحة مميزة، أو تتثاءب باستمرار، أو تضحك بلا سبب، أو تنهار إذا ما جلس عليها من لم تتعود عليه.

كان "حمدان" سعيدا بركنه البعيد يصل فيه إلى حالة من الشفافية والإستغناء لم يصل إليها من قبل، فيشعر أن أهم شئ فى حياته هى الأشعار تتشكل صورها ومعانيها فى أعماقه قبل أن تخرج فى كلمات لها نغمها الخاص. يروح ويجئ بخطوة بطيئة. يضغط على قبضته كأنه غاضب من شئ، أو يفتح ذراعيه كأنه يحتضن العالم، أو يجلس القرفصاء ليكتب بأصبعه على سطح الرمل. يخط الكلمات، أو يضيف إليها أو يزيلها، أو يرقد على الأرض كأنه راح فى النوم وفجأة ينتفض جالساً ليكتب من جديد

كأنه لن يتوقف عند حد فتمتد القصيدة متراً بعد متر على سطح الرمل.

كان يتساءل : ترى متى ينضب معينه؟ مرت ثلاث سنوات وبعد حين طال أم قصر سيتوقف. إنه يحيا مغموساً فى الروتين المتكرر للحياة ، محاطاً بالجمود، بثرثرة النزلاء، بالأسلاك الشائكة ومساحات الصحراء. تصعد فوقه الشمس فى السماء وينعكس ضوؤها الأبيض فى صلابة جرداء ، فى الإمتداد اللانهائى، فى الجحيم الثابت من الرمال، والتلال، والأسلاك، والحراس فتتبدى له كل بشاعة الحقيقة، كل قبح هذا العرى القاسى. يصبح قلبه كالحجر الثقيل خلف ضلوعه. يجرجسمه معه كمن يسحب زورقاً وراءه فيتساءل صباحاً ومساءاً كيف السبيل إلى تخطى هذا الواقع ، إلى إختراقه ؟ يعيش أيامه فى حالة من الإنتظار دون أن يعرف نهاية لها. يتشبث بالتطلع إلى الأفق، إلى نقطة فى حجم الجزىء كالذرة لها حركة بطيئة ، أو كالبؤرة تنتفض رافضة الجمود الممتد، كالدودة تطل برأسها هناك، أو تخرج من عقله الباطن وتغزو خياله. يرهف البصر لهذا الشئ ، ويرهف السمع كأن إرادته يمكن أن تصنع شيئاً من العدم الممتد.

مرت الأسابيع والشهور ، ثم فى تلك الليلة فوجئ وهو راقد بصوت الكمان يسمعه للمرة الثانية. تسللت ألحانه من فتحة الأذن وتسربت إليه. سرت فى جسمه كالموجات. قام من رقدته وجلس ثم إستدار ناحيته. جاءه خافتاً مثل نبضات قلب من خلف الضلوع، ثم علا صوته. ربما كان الريح موانياً، أو هيىء له أن صوته

يرتفع لأنه كان يتوق إلى سماعه كأن الشئ الذى ظل ينتظره هو صوت الكمان. لم يسمعه أحد سواه، حتى الشاب الجالس إلى جواره. لم يكن من الممكن أن يسمعه لأن لكل شئ أوانه، ولكل شئ ثمنه يدفع من العمر بالدم، بالمعاناة. وكان "حمدان" قد دفع الثمن لذلك سمع صوت الكمان يتدفق، ويزحف إليه فوق الرمال وحيداً، جميلاً متزايد الجمال كالشوق المنتصر على مسافات الصحراء. ولأول مرة منذ أن تعارفا مد "حمدان" يده إلى الشاب، وأمسك بذراعه فأدرك الشاب أن الوقت قد حان. تبادلا نظرة طويلة فيها فهم. ثم عاد "حمدان" إلى رقدته فوق الرمل. أرهف السمع لكن الكمان كان قد سكت. ظل يحملق فى السماء، والنجوم، والقمر. عقله صاف كمن نام نوماً هنيئاً ثم استيقظ فى الصباح. ظلا متقاربين دون أن يتكلما ، أحدهما راقدٌ علي ظهره والآخر جالسٌ، ولأول مرة منذ أن تعارفا نطق الشاب قائلاً :

"لن أنساك "يا حمدان" ، ثم قاما من فوق الغطاء وأمسكا بأطرافه. نثرا عنه حبات الرمل ثم ثنياه أربع ثنيات وحمله الشاب على كتفه ليتجه كل منهما إلى خيمته أستعداداً للعمل فى الفرن.

* * *

الفصل الحادي عشر

صباح اليوم التالي ذهب "حمدان" إلى مكتب رئيس اتحاد النزلاء. كانت خيمة خاصة مستديرة الشكل عند الباب الشرقي للصوان توجد إلى جوارها خيمة ملحقة بها لاتختلف عنها في الشكل لكنها أصغر منها جلس فيها رجل يرتدي قميصا سمني اللون، وعوينات زجاجها داكن. كان أمامه تليفون وأوراق وضع عليها منفضة سجائر فأدرك أنه السكرتير الخاص لرئيس الإتحاد. وجده جالسا على مقعده أصلع الرأس، صغير الحجم. تأمله من فتحة الخيمة فبدا له أن حجمه يتضاءل، أنه يتحول إلى ثقب لا بد من أن يمر خلاله، ثقب يتسع أو يضيق حسب الأتاوة التي يحصل عليها، فتحكم الموظفين مرتبط منذ أيام الفراعنة بالتحكم في فتحات الري، لذلك له تاريخ يعود إلي آلاف السنين.

خطا داخل الخيمة وحياه فاستقبله الرجل ببشاشة لم يكن يتوقعها. أجلسه على طبلية صغيرة وضع عليها وسادة، وسأله إن كان يشرب شيئا، فاعتذر وأوضح له أن الأمر الذي جاء من أجله عاجل. سأله إن كان الرئيس موجودا فأخبره أنه مريض وأن

طبيب المعهد منحه إجازة لمدة أسبوعين فانصرف عائدا من حيث جاء.

بعد أسبوعين وقبل أن يتردد آذان المغرب توجه إلى مكتب رئيس الإتحاد للمرة الثانية. كان الملحق الصغير الذي يجلس فيه السكرتير خاليا لكنه وجد رئيس الإتحاد جالسا خلف مكتبه وعلى وجهه إبتسامة كأنه تذكر شيئا أرضاه. عندما لمحه يطل من خلف الحاجز إنتفض كأنه فوجئ بوجوده، لكنه قام على الفور، وقال:

"تفضل. تفضل."

قال "حمدان" :

"أعتذر إن كنت أقحمت نفسى عليك في لحظة راحة. أنا إسمي "حمدان محمد عميرة" شاعر. جئت إلى المعهد منذ ثلاث سنوات"

قال:

"تفضل هنا على الكنبة" وأخذ مكانه على الطرف الآخر ثم أستطرد "جئت منذ ثلاث سنوات يا أستاذ "حمدان" ولم تزرني حتي مرة واحدة".

"لم أرد أن أضيف إلى مشاغلك".

"مشاغلي؟ مشاغلي هي كل ما يتعلق بحياة النزلاء. وأنت الشاعر الوحيد في المعهد، مع ذلك لم تشارك في أي نشاط ثقافي حتي الآن، ولم تلق علينا شعرا في الإجتماعات. طالما أنك جئت إلى لن أتركك قبل أن توعدني بالإنضمام إلى "لجنة النشاط الثقافي"."

"أليست كتابة الشعر بالنسبة لشاعر أهم من الإنضمام إلى لجنة النشاط الثقافي".

"وما المانع في أن تقوم بالإثنين."

"هناك موانع. من بينها أنهم لم يوفروا لي حتى الآن ورقا، وقلما للكتابة."

تجمدت ملامحه، وسرحت نظراته. حرك جسمه المربع على الكنبة ثم قال:

"سأسأل المشرف العام عن ملابسات الموضوع. أو.... من الأفضل أن تناقشه أنت فيما تريده. ربما يخشون أن تسيء استخدام هذه الأدوات".

تجاهل "حمدان" الجملة الأخيرة وقال:

"ناقشته بالفعل عدة مرات".

"وماذا قال؟"

"قال أن الموضوع من إختصاص "القومندان" ومجلس الإدارة واقترح أن أعرض المشكلة عليك لعلك تتدخل لدي القومندان وتقنعه".

إبتسم في حرج وقال:

"لا أريد أن أذهب إلى القومندان مباشرة، وأن أتخطي المشرف العام. أترك المسألة لبعض الوقت ربما نجد لها حلا. أهذا كل ما جئت من أجله؟"

"لا. هناك مسألة أخري أملي أن تساعدني فيها. وهي تتعلق بالعمل الذي أقوم به. منذ أن وصلت وأنا أعمل في فرقة العجين

وهو عمل أحبه لكنه شاق وبعد سنوات ثلاث أرهقت فأريد أن تعاوني في تغييره".

"وما العمل الجديد الذي تقترحة.؟"

"أريد أن أضخ المياه من البئر. إنه عمل شاق هو أيضا لكنه أخف وفيه ترويح عن النفس."

"لكن البئر يبعد عن المعهد مسافة خمس كيلو مترات. ومعني هذا أنك ستخرج من أسوار المعهد وتبتعد عنها يوميا كل هذه المسافة. ثم هناك إثنان يقومان الآن بهذا العمل".

"أعرف هذا. لكنهما أصيبا بجروح وخدوش فى الأصابع وأصبحا عاجزين عن الإستمرار مما أدي إلى انخفاض في كميات المياه التي تصلنا. ألم يبلغك أحد بهذا؟"

"أبدا. لم ألاحظ أي نقصان فى كميات المياه التي تصل إلى".

"أما نحن فبعد قليل سنعاني أزمة. لقد بدأ الجرب ينتشر بسرعة البرق. وهذه ليست سوى البداية. ستتوالي بعدها مشاكل أخرى ".

"سأتناقش معه في هذا المسألة. ليس لدي مانع أن تقوم أنت ونزيل آخر بهذا العمل المهم. والآن عندي إجتماع. بعد أسبوع سيحتفل المعهد بعيد ميلادي. هل تستطيع أن تؤلف قصيدة لهذه المناسبة وأن تلقيها في الحفل؟"

صمت "حمدان" قبل أن يرد.

"مستعد لكن هذا يتطلب أن أحضر إليك مرة أخري لتحكي لي عن حياتك".

أطل السكرتير برأسه من خلف الحاجز ، فالتفت إليه رئيس الإتحاد. قائلا:

"جئت في وقتك". أطلب من المشرف العام أن يمر على فى الصباح"... تردد ثم أضاف "أو الأفضل قل له أنني أريد أن ألتقي به فى مكتبه باكر بعد الإفطار".

* * *

الفصل الثاني عشر

إنقضى الصيف، وجاء الخريف. الخريف الرابع منذ أن وصل إلي منفاه. يذهب كل يوم هو والشاب إلى "العين"، إلى البئر الإرتوازي لملء الفناطيس بالمياه. يذهبان مرة في الصباح، ومرة آخر النهار قبل غروب الشمس. يجتازان مسافة الخمس كيلو مترات راكبين في شاحنتين لكل منهما "خزان". يجلس "حمدان" إلى جوار السائق، ويركب الحارس أعلي الخزان، ويستقل الشاب الشاحنة الثانية ومعه الحارس بنفس النظام، وتسير خلفهما شاحنة ثالثة مزودة بخزان سعته أكبر بمقدار الضعف يقودها سائق وإلى جواره الحارس الذى يحمل مثل الحارسين الآخرين مدفع "أوزو" رشاش.

تجتاز القافلة الثلاثية المسافة الممتدة من بوابة المعهد حتي "العين" في إتجاه جنوبي شرقي في مدة تستغرق ربع الساعة أو أكثر أو أقل حسب اتجاه وشدة الرياح. تسير على رمال دكتها عجلات الشاحنات الناقلة للمياه، وسيارات الجيب، والسيارة

"اللاندروفر" الخاصة التي يستقلها "القومندان" في تنقلاته بين المعهد والاستراحة المخصصة له.

في البداية كان الحراس يتتبعون تحركاتهما لحظة بلحظة في يقظه لا تكل. يقفون على بعد خطوات من "العين" أو يتناوبون الجلوس على درج من الصلب يبرز من جسم الخزان. من تحت القبعات الكاكية اللون تطل نظراتهم وبين أيديهم يحملون المدافع الرشاشة مصوبة إليهما. لكن مع الأيام، ومع التعود على هذه الرحلات، ومع نشوء علاقات إنسانية عادية بينهم وبين النزيلين تغير الوضع. أصبحا يقضيان أغلب الطريق غاطسين في النوم ، ثم بعد قليل وحتي يستمتعوا براحة حقيقية بعيدا عن الهزات وإحتمالات السقوط من أعلي الخزان إستبدلوا الجلسة أعلى الخزان بالنوم في الكابينة إلى جوار السائق. فمن الذي يستطيع أن يهرب في هذه المساحات الشاسعة المسطحة تماما ؟! كيف يمكن أن يجتازها سيرا على الأقدام، ومن أين له بالمؤن والمياه التي يحتاج إليها؟! كيف يضمن ألا يتوه في الصحراء لتنتهى حياته نهاية بشعة من العطش أو فريسة للذئاب؟!

هكذا تحولت الحراسة، ومدافع الحراس، وجلستهما فوق برج المراقبة أعلى الخزانات، وعيونهم المفتوحة تطل أسفل القبعات، واليقظة المستعدة لإطلاق الرصاص عند أي حركة تثير الشبهات إلى خمسة أجسام تنام في إسترخاء. كانوا فلاحين جاءوا من قلب الغيطان وأرسلوا إلى هذه البقعة النائية فى أقصى جنوب الصحراء لأنهم لم يكن لهم "وسائط" أو مدخر من المال يصلح

كرشوة لذوى السلطان. ولأن البسطاء عادة لا يختلفون كثيرا حتي إذا تحولوا إلى جند يحملون السلاح ضد أمثالهم من الناس لذلك قرروا أن وقاية النزيلين من ضربات الشمس واجب حتي وإن لم يرد النص عليه فى التعليمات ، فصاروا يخلعون القبعات العسكرية ويعطون واحدة منها "لحمدان" والأخري للشاب. وربما إلى جانب الإعتبارات الإنسانية خطر في بالهم أنها وسيلة للإيحاء بأن من يجلس أعلي برج المراقبة جندي وليس نفراً من النزلاء.

كانت أيام الخريف هذه أجمل أيام عاشاها منذ أن جاءا إلى هذا المكان. يستمتعان في الصباح والمساء بهذا الخروج من حصار الأسلاك الشائكة، بالحركة المنتظمة للعجلات وهما جالسان أعلي الخزان، بالنسيم، ورقة اللون الأزرق للسماء، بالحركة المنغمة القوية للعضلات وهي تشد على مقبض المضخة لترفع المياه من البئر، بالعرق يسيل من كل المسام يخلص الجسم من تراكم الملل، من السموم، ومن الأحزان، بالإنفجار العبقري للألوان ساعة الغروب يتغير بإستمرار كأن الطبيعة تدخر في نفسها قدرة لا نهائية على الإبداع، بالمياه الدافئة تصعد من جوف الأرض تحمل معها الحياة، باللحظة التي يخلعان فيها ملابسهما كي تجف ويغطسان في القناة المبطنة بالطوب الأبيض والأسمنت ليذيبا في المياه كل التعب، كل لحظات الإنتظار ولتلقي بها بعيدا في رمال الصحراء فيعودان وكأنهما ولدا من جديد ويتتبعان زحف الليل يطفيء بقايا الإشتعال خلف ردائه الداكن.

شيء واحد أصبح يبث القلق فيه. لم يعد يري أي أثر للذبذبات التي كان يلتقطها في الأفق بعد العودة من وردية العجين. ربما لأنه في ذلك الوقت يكون مشغولا بضخ المياه من البئر. لكنه أصبح يشك في أن هذا هو السبب ، فحتي في الأيام التي تخلف فيها عن الذهاب إلى "العين" ظل الأفق خاليا من أي أثر لما كان يتطلع إليه. في لحظات نادرة كان يهيأ إليه أنه لمح النقطة السوداء تتحرك في موقعها القديم لكن سرعان ما كان يدرك أنه مجرد خيال. وفي أحدى الليالي جاءه شيء كالنبض الخافت الدقيق وهو راقد فوق الغطاء ولكن بعد قليل أدرك أنه يسمع نبضه هو يتردد في قنوات الأذن. حتي تلك الدودة الرفيعة التي كانت تتسلق عقله الباطن خارجة من الأعماق لم تظهر من جديد ، وبالتدريج سيطرعليه الشك في كل الظواهر التي أيقن أنها ستوصله إلى شيء، إلى إكتشاف كان يصبو إليه، بل سيطرعليه الشك في نفسه، وفي قدراته. أحس أن كل هذا ليس إلا وهما أوسرابا استنبطه من خياله دون أساس، فمن من الناس يمكن أن يصدقه إذا وصف لهم ما كان يراه في الأفق البعيد.

لكن في أحد الأيام وهما سائرين داخل الأسوار توقف الشاب وأمسك بذراعه. نظر في عينيه مليا ثم قال " "حمدان" أين صوتك؟. أين أشعارك؟ هل قررت أننا وصلنا إلى النهاية ؟"

* * *

الفصل الثالث عشر

وفي تلك اللحظة رآها. كان قد ترك الشاب يملأ الخزان الأخير بينما نام الحراس تحت الشجرة الوحيدة الموجودة على مقربة من "العين" كأن أحد سكان الصحراء زرعها ومضى. وكان السائقون الثلاث يلعبون "الكوتشينة" ، مراهنين على علبة سجائر فبحث عن مكان يستريح فيه خلف الجدار الذي بنوه ليحمي البئر من العواصف الرملية. يسمع صوت التروس الحديدية تئن مع حركة المضخة اليدوية، وخرير المياه تتدفق في القناة المستطيلة ومنها إلى الماسورة التي تغذي حديقة الاستراحة يري سورها المنخفض تتسلقه زهور البازلاء الحمراء والزرقاء والبنفسجية وتطل من فوقه رؤوس عباد الشمس الصفراء. كانت نوافذها مفتوحة تغطيها ستائر بيضاء خفيفة تتحرك مع دفعات النسيم يهب في الساعات الأخيرة من النهار فأخذ يحيا بخياله في الحجرات الواسعة، في مائدة طعام عليها أطباق من الصيني فيها بطيخ، وعنب وتين، وإبريق فيه عصير ليمون، وشرائح من اللحم المشوي والفلفل الأخضر يأكل منها وهو جالس على مقعد وثير

مفروش بالكتان الأبيض ويقرأ في كتاب وهو يرتشف من العصير.

توقفت حشرة صغيرة أجنحتها شفافة على ساقه العارية ثم طارت. تبعها بنظراته ففوجئ بامرأة تخرج من باب الحديقة وتسير في إتجاه "العين". توقفت فوق تل من الرمل وتلفتت حولها. لمح شمخة الرأس المرفوعة على عنقها الطويل ، وشعرها يشع منه وهج دفين. كان جسمها الممشوق يلفه ثوب أبيض من التيل، فوقف. نسي الشاب، والحراس والسائقين، ومائدة الطعام، وإبريق الليمون والكتاب المفتوح كان يقرأ فيه، وزهور الحديقة، وقدميه الحافيتين. وقف وخطا نحوها خطوتين.

هبطت من التل واقتربت منه. رأت الملامح المرهقة، والتجاعيد، واللحية الطويلة، والأصابع سودها الزيت، والملابس القديمة والقدمين الحافيتين، لكن غاب عنها كل ذلك ولم تعد تري إلا عينيه فيهما نظرة جريئة. تردد همس مضطرب في داخلها يقول "إنه هو".

سمعته يقول :

"أأنت صاحبة ألحان الكمان ؟"

هزت رأسها بالإيجاب وظلت صامتة.

قال :

"سمعتك في الليل؟

"هذا ما كنت أتمناه. أن تصل ألحاني إليكم."

"لذلك جئت".

نظراتها فيها تأمل كأنها تحاول أن تتذكر شيئا. هذان العينان هل رأتهما من قبل؟ هذا الصفاء هل تصورته فى خيالها فأصبح حقيقة؟ تدرك أن تحته إرادة، وحريق. تتبهت أنها إبنة "القومندان" تقف مع نزيل فى المعهد وتتحدث إليه. قالت :

"أخشى عليك من وقفتنا هذه. لابد من الإنصراف وإلا أصابك ضرر بليغ."

في عينيها رأي الخوف. هل تخاف عليه أم على نفسها؟ قالت كأنها قرأت في وجهه ما كان يفكر فيه.

" أنا لا أخشي على نفسي بل عليك".

أحس بدماء الخجل تصعد إلي وجهه. قال :

"آسف. آخر ما أريده هو أن تغضبي مني".

ابتسمت فأحس بالفرحة تكاد تخنق أنفاسه قال :

"لا بد أن نلتقى مرة أخري. سأمرض إذا لم نلتق من جديد".

نظرت إليه بمزيج من الود، والسخرية.

"أنت تبالغ. يبدو أنني أول امرأة تراها منذ سنين".

"كيف عرفت؟"

"عرفت."

"لا.لابد أن تقولي لي كيف عرفت هذه الحقيقة".

"ألست "حمدان" الشاعر؟"

أخذ على غرة فصمت. قالت :

"ألا تعلم أنني إبنة القومندان؟"

قال :

"أنا إذن مادة للتسلية".

بدا على ملامحها الضيق. لم تعلق. سألها :

"ما الذي يقوله عني؟"

"أنك خطير."

دق قلبه دقة قوية كالقفزة فوق المتاريس ثم عاد إلى إنتظامه. أحس بمزيج من الخوف والزهو.

"لماذا؟"

ألقت إليه بنظرة سريعة.

"يقول أن عندك خيال، وأنه طوال التاريخ كان أصحاب الخيال هم الخطرين"

"أبوك هو الخطير".

أطل الخوف في عينيها من جديد.

"نسيت نفسي. أنت تغريني بالحديث. يجب أن أنصرف حالا".

قال :

"لا بد أن أراك مرة أخري".

"غدا. فى نفس الميعاد لمدة قصيرة."

إستدار وسار فى اتجاه إحدى الشاحنات المتوقفة قرب "العين". ثم عاد يجري بخطوة سريعة.

"لم أعرف إسمك."

"أنا...أنا إسمي "كريمة""

ظل واقفا بلا حركة. وضعت يدها خلف عنقها ورفعت شعرها. لمح الوهج فى خصلاته واستنشق رائحة ياسمين.

إرتعشت أصابعه، وفي عنقه إنتفضت عضلة رفيعة. أخذ نفسا عميقا ثم أنطلق يجري مرة أخري في إتجاه الشاحنة. صعد أعلي الخزان فسارت الشاحنات الثلاث تصاحبها ظلالها الداكنة فوق الرمال.

* * *

عندما توجها في الصباح للركوب في الشاحنات لاحظ الشاب أن "حمدان" إرتدي قميصا جديدا مطرزا بخيوط زرقاء وأنه أزال لحيته وأصبح حليق الذقن فبدا أكثر شبابا. أحس أن ذهنه أصبح مشغولا، أنه مستغرق في شيء فعندما جاء دوره لملء الخزان ظل يدفع يد المضخة إلى الأمام والخلف حتي بعد أن امتلأ "الفنطاس" فأخذت المياه تفيض على جانبيه وتتسرب في الرمال.

عندما عادا من "العين"، وانتهيا من ملء البراميل، إغتسل تحت الصنبور واختفي في الليل. لم يره الشاب في الصوان أثناء العشاء، ولم يلتق به في جلستهما المعتادة رغم أنه ظل ينتظره حتي برز قرص الشمس من عمق الصحراء. استمر جالسا وحده فوق الغطاء وزحف في قلبه شعور بالحزن. لكن "حمدان" لم يكن في حالة طبيعية. في جسمه وقلبه شيء كالحريق جعله لا يفكر في الأكل، أو النوم، أو في الشاب، أو في أي شيء. يعيش كل لحظاته وصورتها ماثلة في عينيه. شعرها المنسدل ينبعث منه هذا الوهج الغريب، نظرة عينيها العسليتين، إبتسامتها تذكره بالفرحة، والطفولة، بالأيام البريئة كان يلتقي بها على الجسر، ضحكتها تصعد في جو الأصيل فيدرك فجأة أنه لم يضحك منذ سنين.

يتراءي له نهدها نافرا تحت الثوب فيجف حلقه ويرتعش بتلك الرغبة المعذبة إلى الأنثي التي غرسها المنفي في جسمه. لكن شيئا فشيئا استعاد توازنه، فعاد يرقد على ظهره فوق الغطاء ويتطلع إلى نجوم الليل بينما يجلس الشاب إلى جواره كأنهما مستغرقان في الحديث.

أصبح يلتقي مع "كريمة" على فترات متباعدة، ولمدة قصيرة أثناء خروجهما إلى "العين" في دورية المساء لملء "الفناطيس". كانت هذه اللقاءات تملأهما بالسعادة، ولكن كانت تصيبهما أيضا بإضطراب شديد. يظلان يحلمان بها ساعات طويلة. ينسجان في خيالهما تفاصيل ما سيدور بينهما أثناءها. تمر في ذهنهما تصورات أشعلتها العواطف، والرغبة الجنسية. وعندما يأتي موعد اللقاء، يتضاعف الإضطراب الذي يشعران به فيكادان لا يقولان شيئا، وتتبخر التخيلات التي نسجاها وهما بعيدان عن بعضهما، فهناك الخوف من انكشاف أمرهما والنتائج التي يمكن أن تترتب عليه، والمدد القصيرة التي يقضيانها سويا، وهذا الشوق إلى التلامس، إلى الحب، وكأنهما يعرفان بعضهما منذ مدة طويلة.

في إحدي ليالي الشتاء الخامس منذ رحيله إلى الصحراء كان "حمدان" نائما كعادته تحت السماء المفتوحة ملفوفا في الغطاء الصوفى، وكان الشاب راقدا إلى جواره فأحس به يدفع إليه بشيء مستطيل. أخرج يديه من تحت "البطاطين" وأخذ يتلمسه حتي يتعرف عليه فاكتشف أنه كيس من تيل القلوع الخشن يحتوي على أشياء صلبة طويلة يصدر عنها رنين عندما تصطدم ببعضها. فك

الرباط من حول عنق الكيس فسقطت على "البطانية". كانت "عدة" كاملة تحتوي على مقص للصلب، ومفكات، "وزرادية" وأدوات أخري.

نظر إلى الشاب في حيرة ثم بعد لحظة أدرك فضحك ضحكة طويلة صعدت في صمت الليل. أمسك الشاب بالأدوات وأعادها إلى الكيس ثم أوثق الرباط، وأعادها إليه.

* * *

الفصل الرابع عشر

بعد أن استقرا في الإستراحة، وانتظمت حياته فيها تغيرت عادات أبيها. أصبح ينام جزءا كبيرا من النهار ويستيقظ بعد الظهر ليتناول معها طعام الغذاء ثم يغادر الإستراحة في الساعة الخامسة بعد الظهر ليذهب إلى مكتبه في معهد "التهذيب والإصلاح". يستقل السيارة "اللاندروفر" لونها رصاصي داكن خال من اللمعان أو البريق فتبدو كالحشرة الكبيرة وهي تزحف فوق رمال الصحراء. لا يعود إلا صباح اليوم التالي ليصل قبل موعد الإفطار بقليل. يتناول معها الشاي وخبزاً محمصاً، وجبناً، وأحيانا بيضة مسلوقة. يتبادلان أطراف الحديث ثم يأوي إلى الفراش في الساعة التاسعة والنصف. يستيقظ في الساعة الثانية بعد الظهر وبعد أن يدعك أسنانه ويغسل وجهه ويديه يتوجه إلى حجرة فيها أدوات رياضية منزلية ليقوم ببعض التمرينات. يستحم تحت الدش، ثم يرتدي بزته الرسمية وعند الساعة الرابعة يجلسان على المائدة لتناول طعام الغذاء. يأكل قليلا وعادة في صمت.

يشرب قهوته ثم يغادر الإستراحة في سيارته يقودها جندي شعره أشقر، وعيناه في لون البحر عند شاطئ "عجيبة".

كان الإفطار موعده المفضل للحديث معها وكأنه بعد العودة من عمله، من الساعات الطويلة يقضيها بين الرجال المنفيين في الصحراء يتوق إلى هذه الجلسة معها على الشرفة تمتد أمامهما الحديقة على مساحة نصف فدان تتجاور فيها الزهور، والأشجار، والمساحات الخضراء التي زرعتها، ورعتها بيديها يساعدها إثنان من العسكر. تجلب البذور والشتلات من أسيوط، والسماد من حظيرة الخيول الخاصة بحرس الحدود في شاحنة عسكرية نصف نقل. تقضي الساعات الأولى من النهار في الحديقة تغرس، وتسقي، وتقص ثم تحمل بعض الزهور بين ذراعيها لتضعها على مائدة الإفطار، وفي الحجرة التي خصصتها للعزف على كمانها.

في هذا الموعد بالذات يصبح أبوها في أحسن حالاته رغم الخطوط السوداء التى أخذت تتحفر تحت عينيه ربما من السهر، أو الخمور التى أصبح يتناولها، أو من الحشيش عثرت على قطعة صغيرة منه وقعت على الأرض قرب سريره، أو بسبب عيني السائق الزرقاوين. تطرد هذه الأفكار من ذهنها شاعرة بالضيق. له حياته، ولها حياتها وكل واحد منهما حر. لا تسعي إلى معرفة ما يفعله، ولا كيف يمارس مسئولياته. مع ذلك تقول لنفسها "على بعد قليل من الشرفة التي أجلس فيها يوجد مئات الرجال نفتهم السلطات إلى قلب الصحراء، مئات الرجال يتحكم فيهم أبى الذي أعرف جيدا مدي قسوته ومع ذلك فأنا لا أسأله."

من ناحيته هو لم يكن يفتح معها هذا الموضوع. فإذا تصادف أن جاء ذكره عرضا ركن إلى الصمت ، أو عرج على موضوع جديد. هكذا ظلت لا تعرف شيئا عن ثلاثة آلاف من الرجال يقبعون في الصحراء على بعد مسافة قصيرة من الإستراحة التى جاءت لتقيم فيها منذ أكثر من ثلاث سنين إلى أن جاء اليوم الذي عاد فيه على غير عادته في منتصف الليل. سمعت صوت السيارة تدخل إلى الحوش ، وخطوات أبيها تجتاز الصالة إلى غرفة مكتبه. بعد قليل ترددت خطواته مرة آخرى وهو خارج كأنه نسى شيئاً كان يحتاج إليه.

فى الصباح لم يشر بشئ إلى عودته فى الليل وانصرافه من جديد. ظل صامتاً ولم يبادلها الحديث كما كانت عادته وهما جالسين على الشرفة لتناول الأفطار. على وجهه لاحظت ظلالا زحفت عليه وكسته بزرقة داكنة. أدركت أنه حدث شئ أقلقه بشدة، شئ يحاول إخفاءه فقررت أن تكسر الصمت، أن تسأله بشكل مباشر.

"أراك متعباً اليوم ياأبى. هل حدث شئ ؟"

تردد كأنه يفكر هل يفصح عما فيه أم يبقى صامتاً. أصابعه السمراء تضغط حول كوب الشاى كأنها تريد أن تخنق لونه الكهرمانى، و"السيجار" الرفيع يضغط عليه بأسنانه. تأملت الرجل الجالس أمامها. فى أعماقه يظل العنف على حافة الإنفجار، فتعود إليها مخاوف قديمة ظنت أنها تخلصت منها.

نزع "السيجار" من بين شفتيه بحركة متوترة نثرت الرماد فوق المفرش الأبيض، فأزاله بحركة سريعة من يده. أعاد كوب الشاى إلى المائدة، والتفت إليها. عيناه اليقظتان تنظران إليها كأنه يستشف غرضاً خفياً من سؤالها ، وصوته يتردد فى أذنيها كالمطرقة تصطدم بسطح صلب.

"فى يوم من الأيام كان المتربعون على السلطة يعملون لى حساب. والآن أصبحت منفياً فى أقصى جنوب الصحراء". نفخ فى سخرية. "قومندان" على بضع مئات من الشحاذين. على فلول رثة من البشر سيدفنون تحت الرمال. ومع ذلك أصبح من بينهم من يتحدانى، من يتحدى "مصطفى الحناوى" ؟ "

لمحت أصابعه ترتعش. صبت له كوبا من الليمون فأخذه منها وظل ممسكاً به بين يديه. قالت :

"إحكى يا أبى. ربما لو حكيت يتضح أن الموضوع تافه لا يستحق كل هذا الإنفعال".

"تافه؟! لا ليس تافهاً. إذا حدث تمرد فى المعهد سأصبح أضحوكة الناس الذين كانوا يرتعشون أمامى. هذا هو الدرك الذى هبطت إليه. لذلك سأفعصه كالحشرة تحت قدمى. سأجعل هذا الولد مثلاً لمن يجروء على تحريض النزلاء".

أحست بالضيق لكن غلب عليها الفضول فسألته :

"من هو هذا "الولد" الذى يثيرك إلى هذا الحد؟"

"ولد شاعر. أى والله شاعر. يبدو أننى موعود بالموسيقيين والشعراء، وأمثالهم".

تجاهلت تعليقه.

"ولماذا تخشى من شاعر؟ ماذا يمكن أن تخاف عليه من شاعر؟"

مال فى مقعده كأنه يتأهب لشئ.

"يبدو أنك لا تدركين أننى لم أكن فى يوم من الأيام رجل بوليس عادى. مشكلتى أن لدى عقل. نحن لا نرى أقرب الناس إلينا".

خطر فى بالها ما أطول المسافة التى تفصل بينهما.

قالت :

"ما الذى ترمى إليه من هذا الكلام؟"

"رأيى أن أخطر شئ فى هذا الولد أنه شاعر. لذلك نفوه، لكنه حمل معه خياله".

قالت :

"لكن زملاءه.....؟"

قاطعها

"لا... لا خطر منهم... تعلموا الدرس، أو لم يكن لديهم خيال فى الأصل. سنطلق سراحهم. " صمت كأنه يستجمع أفكاره. "أما هو فلن يخرج من هذا المكان أبداً، نعم "حمدان محمد عميرة" لن يخرج من هنا أبداً".

وجهه المزرق ينضح بالكراهية. إجتازتها قشعريرة فأحكمت الشال حول كتفيها، ودست قدميها فى الخف.

قالت :

"لكن ما الذى تخشاه منه بالضبط"؟

قال :

"أخشى أبياتاً من الشعر وجدتها مكتوبة على الجدار فى مكتبى." ثم انتصب واقفاً واجتاز الشرفة بخطوات سريعة كأنه يهرب منها.

*   *   *

الفصل الخامس عشر

منذ الحديث الذي دار بينها وبين أبيها أصبحت لا تنام. إنقض عليها رعب أسود. فما الذي يمكن أن يكون مصير "حمدان" إذا انكشف أنهما يلتقيان سرا عند البئر. أن ما يحدث بينهما ليس من العقل، إنه الجنون بعينه. ما الذي يجعلها تنجذب إليه. إنه مشرد، ضائع في الصحراء لا يملك شيئا ؟ تنهدت. لا شيء سوي هذا الصفاء الغريب رغم ما عاني منه. لا شيء سوي لمسة يديه، وأبياتا من الشعر تنبض في أعماقها.

إذا ضبطوهما سيفتكون به. قد تفلت من الفتك، لكنها لن تفلت من الفضيحة. كلمة فضيحة ترن في أذنيها، تصيبها بالغم. كيف يتحول حبهما هذا إلى فضيحة ؟ لكن الفضيحة مهما كانت قاسية يمكنها أن تتحملها. وربما رفدوا أباها. لن يهمها هذا كثيرا. سيخرج من البؤرة الفاسدة التى قضي عمره فيها. أما "حمدان" فهو يجازف بحياته. لا بد أن توقف ما يدور بينهما قبل أن تقع الكارثة. لكن كيف يمكن أن تقول له "يا حمدان" هذا آخر لقاء بيننا" ؟ عندما يفترقا وتراه وهو يبتعد عنها ليمتطي خزان الشاحنة

تظل واقفة كأنها تتوقع أن يعود. تتخيلة عائدا إليها راكبا أعلى الخزان. يأخذها بين ذراعيه ثم يهربان في سيارة جيب إلى إحدي الواحات، أو يعبران الحدود إلى السودان فلا يستطيع أحد أن يصل إليهما.

مع مرور الأيام أصبحا يلتقيان في الليل. كان "حمدان" يخترق ثغرة في الأسلاك ليجتاز المسافة حتي "العين" تستغرق منه ساعة ونصف الساعة وأحيانا ساعتين. إذا غاب القمر كان يوجد بصيص من النور يصل إليه من النجوم. يتفادي الطريق الذي تمر عليه الشاحنات، وسيارات الجيب، وسيارة المدير، ولا يسير عندما ينتشر ضوء القمر في الصحراء. إذا استشعر أن هناك خطرا كان يتوقف ويرقد ساكنا أو يزحف على بطنه. لكن أصعب شيء بالنسبة إليه كانت الطبيعة المضللة لتضاريس الصحراء عندما تراها العين غير المدربة، فبقدر وضوحها القاسي أثناء النهار يكون غموضها محيرا أثناء الليل. يبدو فضاؤها مسكونا بمئات الكائنات وتتخذ الظلال أشكالا لا حصر لها. تتحرك أحيانا أو تظل ساكنة. تجعله يري في كل خطوة عدوا متربصا. حتي الجرابيع التي تحفر لنفسها جحورا تختفي فيها أو تنطلق منها كانت تصيبه بالفزع.

كان يرهقه الجهد الذي يبذله ليصل إليها. إتسعت عيناه ونحل قوامه فأصبح مثل الروح الشفافة تطل من الجسم. مع ذلك غدا لا يكف عن العمل والضحك، عن الغناء والرقص، وعن الإنزواء

في ركنه المفضل ليكتب الشعر. شعر أنه يحيا على حافة الخطر ولا بد أن يستغل كل دقيقة من الوقت الباقي له.

كان يتسلل إلى "العين" عندما تسقط الشمس. أما "كريمة" فكانت تنتظره مختفية خلف جدار البئر تهزها مشاعر الخوف، والتوقع، والشوق. تعد الثواني والدقائق وترهف السمع. تحاول أن تخترق الظلام لعلها تلمح قوامه، وفى لحظة تفاجأ به أمامها. ففى كل مرة يغير إتجاهه. لا تري ملامحه. تستنشق رائحة عرقه، رائحه الجهد الذي بذله ليصل إليها. تمد يديها، وتتشابك أصابعهما. تهمس أحبك "يا حمدان" وتحيطه بأحضانها.

يجلسان على الرمل. يري عينيها. يلمح الوهج الأحمر في شعرها يهز النسيم خصلاته. تتدفق الكلمات كخرير المياه من البئر نقيه، ذكية تروي عطشهما. يتحدثان عن كل شيء، عن الشعر والموسيقى والغناء، عن ذكرياتهما كأطفال، عن الفطير المشلتت ومش الأغنام، عن صوت الكروان فوق الغيطان، عن مسرحية كتبها لا زالت ترقد فى الأدراج، عن فلاسفة اليونان، عن إبن رشد وأبي نواس، عن رحلة قامت بها إلى أسوان. عن الطماطم التي زرعتها في الرمال، عن البدو والحياة في الواحات، عن الصداقة والأحلام. تمر الساعات وكأنها دقائق. تنظر إلى معصمها. تلتفت إليه. تقول "حمدان سرقنا الكلام. لا بد أن نقوم الآن".

جاء وقت الفراق. صدره ينقبض. أجهزة القياس تدق بدقاتها الصامته. إنها قلوب من الصلب لا تؤمن بالعواطف. قم "يا

حمدان". خض بقدميك رمال الصحراء. لا تتلكأ ولا تنظر وراءك. عد من حيث جئت، إلى الحراس والأسلاك الشائكة، إلى الزمن الرتيب المتشابه.

* * *

الفصل السادس عشر

قارب الشتاء السادس على الإنتهاء وبدأ الخريف. أخذت تزحف في شعره خطوط الشيب. لا حظها في المرآة يوم أن ذهب ليتسلم قرار الرفض بمنحه ورقا وأقلام. فوجئ بالغضون محفورة في الملامح. تري هل لاحظت "كريمة" آثار الزمن ؟

كانا يعشقان موسم الخريف. الجو رقيق ودافئ والغروب يشعل السحب بألوان الورد والكركم، والجنزبيل والذهب تزحف في الزرقة الصافية. أما الربيع فأصبحا يكرهانه. فيه تتكرر العواصف. تنقض عليهما عند "العين" أو أثناء المشوار الذي يجتازه للوصول إليها فتحول دون أن يواصل سيره. تتسرب حبات الرمل الخشنة إلى الأنف والفم، والأذنين، وبين الأسنان. تمنعه من رؤية أي شيء. يشق طريقة وسط سواتر كثيفة من الرمل واضعا المنديل الكبير على وجهه، متحسسا طريقة بحذر. يدرك أن أي خطأ معناه أن يضيع لذلك في بعض الأحيان كان يظل قابعا في الخيمة رغم القلق والشوق ينهشان أعماقه.

مع الأيام زادت معرفتهما بطبيعة الصحراء، والنزوات التي تصيبها فحفرا حفرة على بعد عشرين مترا من الشجرة الموجودة قرب "العين" ووضعا فيها صندوقا من الصاج يحتوي على أغطية وملابس، وأشياء أخري قد يحتاجون إليها مثل الصابون، والمناشف، وفرش ومعجون للأسنان، وبعد تفكير أضافت إليها "كريمة" حبوب منع الحمل أخفتها في ركن من أركانه.

في إحدي الليالي الصافية بدت فيها نجوم الصحراء كأنها مغسولة. كانا ينامان متجاورين على غطاء من الصوف إبتاعته من الواحات. لمح صدرها وهو يعلو وينخفض ويكاد يلمس طرف الهلال المعلق في السماء ثم ينسحب. مالت عليه. أحس بثديها يلمس خده فسري فيه تيار الرغبة عارما. فكر أن يحيط دورانه الأنثوي بكفه، لكنه إمتنع. أدرك أنها امرأة تملك جسمها ولن تعطيه إليه إلا من تلقاء نفسها. همست في أذنه

"يا حمدان". أأنت مستيقظ ؟"

قال :

"عندما تكوني معي كيف لا أكون مستيقظا".

لمح أسنانها تلمع في الظلام.

"لكني رأيتك عدة مرات وأنت تنام".

شعر بالحرج.

"كيف عرفت أنني نائم ؟"

"كان بريق عينيك غائبا فعرفت أنك نائم".

"دخلت قلبي، ولن تخرجي منه أبدا".

قالت بصوت فيه حزن :

"مع ذلك نمت وأنت معي".

صمت.

قالت :

"لماذا تصمت؟"

قال :

"منذ شهور وأنا أكاد لا أنام. في الليل أحضر إلى هنا وفي النهار أضخ الماء في الفناطيس صباحا ومساء".

مالت عليه لتقترب منه. خطر له أن يقبل ثديها لكنه طرد الخاطر. أعطته قلبها، وعقلها، فلماذا تظل بعيدة عنه بجسمها؟

همست :

"فيما تفكر يا "حمدان؟"

قال :

"أفكر في حبي لك".

"أهذا ما يشغل بالك؟"

صمت. فوجئ بها تضحك بسعادة، ضحكة إمرأة مقبلة على شيء جميل في حياتها. ضحكة فيها فرحة عارمة.

قالت :

"جاء الوقت "يا حمدان". أصبحت جاهزة ولم أعد أريد أن أنتظر".

عيناها نجمان توأمان تطلان من وجهها.

قال في صوت مختنق.

"الآن؟"

صمتت. شعر بالقلق

قالت :

"ما أجمل الحب عندما يغمره النور. عندما تراني، وأراك".

شعر بصدره ينقبض. ما الذي تعنيه بهذا الكلام؟ سحبت يدها من بين أصابعه كأنها تنبهت. نظرت إلى معصمها وقالت في توتر.

"الوقت أزف. في كل مرة عندما نفترق أشعر بقطعة مني تنتزع.. إلى متي..؟ إلى متى..؟" وضعت رأسها على كتفه ثم قالت في صوت إستعاد هدوءه.

"لماذا أنت صامت ؟ لم تقل لي رأيك فيما قلته".

"لم أفهم ما الذي تقصدينه".

"إذن إسمعني. بعد أثني عشرة يوما سيكتمل القمر، سأنتظرك كما تعودنا هنا."

وضعت يديها حول وجهه. صوتها فيه ثبات من قدّر العواقب ثم إتخذ قراره. قال :

"لكن إذا رآنا أحد...؟"

قالت :

"سأنتظرك هنا يا "حمدان" ليلة أن يكتمل القمر".

* * *

طوال اليوم كان يبقي وحده في ركنه المنزوي فأدرك الشاب أن باله منشغل. يقضي الليل راقداً خلف الصوان. يقوم في الفجر

ليخلع ثيابه ويغتسل كأنه يستمد من الماء الباردة طاقة. يتتبع الشاب جسمه الفارع يكتسي بلون ذهبي في الشمس الصاعدة. ينتظره حتي ينتهي من إرتداء ملابسه ليسيرا سويا حتي المكان الذي يجلسان فيه في مطلع النهار.

لم يكن أحد منهما قد تنبه من قبل إلى أنه على بعد قليل من السور الشرقي، بإمتداد المسافة التي تصل بينه وبين "العين" كان يوجد خط من الكثبان الرملية المنخفضة تكونت مع الزمن. ربما يكون إنخفاضها هو الذي حال دون أن يلتفتا إليها. أمعن الشاب النظر فيها فأدرك أن هذه الكثبان يمكن أن يختفي خلفها "حمدان" وهو سائر. لاحظ أنها كانت موزعة في خط منحن، وأن الفجوات بينها قليلة. عندما تأكد أنه أستوعب كل تفاصيلها إختار الفترة التي يقضيانها في التريض ليتحدث مع "حمدان" عما يدور في ذهنه. اقترح عليه أن يخضع هذه الكثبان لدراسة متأنية ليتعرف على إتجاهها، وإرتفاعها، وتوزيعها، خصوصا وأن المنحني سيطيل المسافة إلى "العين" بمقدار الثلث أو أكثر، فلابد من أن يضع هذا في حسابه عندما يذهب للالتقاء "بكريمة" في المرة القادمة.

قضي "حمدان" عدة ساعات في مشاهدتها من مختلف الزوايا. وفي الليلة التي إكتمل فيها القمر ودع الشاب ثم طلب منه أن يتركه ليبقى بعيداً عن الخطر. فتح ثغرة في الأسلاك الشائكة في مكان آخر غير الذي اعتاد أن يخرج منه. إنتهي من هذه المهمة بعد أن فتحها تسلل خلالها وأخذ يشق طريقه في الرمال. كان يتوقف بين لحظة وأخري ليشحذ حواسه. بدا له أن ضوء القمر

أسطع منه في أي ليلة شهدها منذ أن جاء إلى المنفي، فشعر كأنه يسير في وضح النهار. مع ذلك في لحظة من اللحظات وقع في حفرة ولم ينتزع نفسه منها إلا بصعوبة. أحس أنه مع كل خطوة يغوص في حلم مزعج. ما الذي جاء به إلى هذه الأرض الشاحبة الباردة الخالية من الكائنات الحية؟ ما يفعله هو الجنون بعينه. الحياة في هذه الصحراء الملعونة جعلته يفقد عقله. الأفضل أن يعود قبل أن يرهق فلا يستطيع العودة.

هكذا دارت الخواطر في ذهنه. حاول أن يركز أفكاره على "كريمة" دون جدوي، على اللحظة التي سيلتقيان فيها. فبذل جهدا ليسرع الخطوة لكن نعومة الرمال في الطريق الذي اختاره كانت تعوقه. شعر أن الزمن يطول، أن الوقت يمضى دون أن يحقق تقدما، أن التعب أخذ يحل به، وفي لحظة معينة خطر له أنه تاه، أنه سيضيع في المساحات المصمته لا تكترث بما يحدث له. بدت المسافات كأنها تطول كلما توغل في سيره، فتملكة الفزع. كاد أن يرقد على الأرض ويستسلم. تجمعت الصرخات الصامته في صدره. سيقع فريسة للذئاب الجائعة.. يكاد يري عينيها وهي تدور من حوله. الأفضل أن يعود، لكن كلما فكر في هذا أدرك أن ليس أمامه سوي أن يواصل طريقه فإن كان سيضيع فليضيع وهو يصارع. فجأة لمح الاستراحة عن بعد راقدة فوق الرمل فتوقف ليلتقط أنفاسه. الآن أصبحت خطواته خفيفة كأنها تطير فوق الأرض. بعد قليل لمح جدار "العين" كرأس الدبوس الأسود ثم أخذ يكبر كلما أقترب منه حتى وصل إليه وإنهار فوق الرمل يلهث.

أسند ظهره للجدار، ومد ساقيه. أحس بلمسات النسيم حول وجهه. سرح ذهنه في كوب من الليمون، وفجأة سقط في نوم عميق، أحس أثناءه أنه يرتفع من بئر عميق ويصارع ليخرج صارخا "كريمة" "كريمة". إستيقظ كأنه كان غارقا تحت مياهها ثم صعد إلى سطحها. إلتفت حوله باحثا عنها. كيف نسيها وترك نفسه يسقط في النوم؟ أين هي؟ قلبه يدق برعب جديد. ما الذي جري لها؟ دفن وجهه بين يديه كأنه سيبكي لكنه تمالك ورفع رأسه. وفي تلك اللحظة رآها. كانت تقف فوق تل صغير في ضوء القمر. رأي قوامها الملفوف في ثوبها الأبيض. هبطت من التل وسارت نحوه. قلبه يدق تحت الضلوع، وقدماه تخطوان فوق الرمال بإرادة مستقلة عنه. سكت خرير المياه المتدفق من "العين"، وهمس الريح في أوراق الشجر. تلاشت كل الأصوات حتي صوت الصمت وتوقفت حركة كل الأشياء في الكون ما عدا دقات قلبه، وخطواتها السائرة نحوه. أطل عليهما القمر في سكون ليشهد عليهما.

قالت في صوت له رنين :

"إنتظرتك طويلا "يا حمدان".

فجاءها رده.

"وأنا إنتظرتك "يا كريمة".

"أنا أحبك يا "حمدان" وسأظل أحبك".

"وأنا أحبك "يا كريمة" وحبي لك لن يموت".

"إذن زوجتك نفسي "يا حمدان"".

"وأنا زوجتك نفسي يا "كريمة"".

إرتفع صوتها في السكون مرة أخري.

"فليشهد الكون أننا أصبحنا زوجين".

مدت إليه يدها فأمسك بها. الشوق إليه يجفف حلقها. في عينيها تساؤل الأنثي عندما تقرر أن تهب نفسها. رفعت يديها خلف عنقها وفكت الكوبشة. سقط الثوب الطويل عند قدميها فبدا كأن جسمها العاري إنبثق من بطن الأرض فجأة ليضيئه القمر. إقتربت منه. رفعت القميص من فوق رأسه وفكت رباط السروال من حول خصره. تتبعها في إندهاش وهي تكشف عن عريه. رقدت فوق الغطاء وهمست "أرقد جنبي" فرقد. مال عليها فتراجعت ثم لفت ذراعيها حوله. أحس بثديها يسكن في صدره، بفمها يبحث عن فمه فيتعثر. تفتح عينيها وتنظر إليه وكأنها تقول ماذا تنتظر فيتحسس طريقه إليها. يقبلها على شفتيها، في أذنها، وعنقها، على صدرها فتتدفق النشوة من جسمها دافئة. تحتويه في أحضانها وتقوده إليها بيديها على ظهره. تفتح له عالمها دون تردد. ترفعه على تموجاتها الصاعدة. يتأرجحان عند القمة فاقدي الإحساس بكل شيء سوي هذا السعي المجنون إلى المطلق، إلى فناء كل منهما في الآخر ليلقيا بنفسيهما من أعلي القمة، من نقطة منتفضة تحت جمجمة الرأس تتدفق منها اللذة كأن بوابة فتحت أمام فيضانها. نقطة يتلاشي فيها الإحساس بالحزن والوحدة. لحظة تنقلب فيها الأرض علي السماء ويختفي فيها الكون. لحظة مهولة مخيفة من الفراغ كالموت يعود بعدها الإحساس بجسميهما جزءاً بعد جزء، بأصابع القدم ثم الساق، بأصابع اليد ثم الذراع وبعدها

ببقية الجسم. وإحساس آخر بالولادة من جديد، بأنهما نقيان، نظيفان مغسولان من كل الآثام.

نظر الي ملامحها، الي البريق في عينيها. قبل يديها وشفتيها، والعانة أعلى ساقيها ثم وضع رأسه علي صدرها ونام. فنظرت الي ملامحه المرتاحة، الي الجفون المغلقة في اطمئنان. الي براءة الطفل "حمدان". نطقت اسمه كأنها تريد أن توقظه فقد عاد إليها إحساسها بالوحدة بعد أن نام. قبل ذلك لم تكن تفقد هذا الإحساس الا مع الكمان. عرفت الاستسلام لرجل يحب قواها، وكمانها، رجل لا يخشي منهما علي كيانه. فلماذا تركها ونام ؟ مسحت بيدها على صدره. شعيراته الناعمة فيها كهرباء من الجو الجاف واحتكاك الرمال تحس بها في أطراف الأصابع. همست في أذنه "حمدان" ففتح عينيه. هبط برأسه قرب ذراعها. رأي ثديها كالقبة ترفع الحلمة للسماء فغار. مد يده ليخفيها عنه وغطي صدرها العاري بالشال.

* * *

الفصل السابع عشر

عاد إلى الإحتماء فى الليالى المظلمة. فالقمر خلق للحب، للقاء العشاق. لكنه بالنسبة "لكريمة" و "حمدان" لم يكن الأمر كذلك. فى ضوئه الجميل يمكن أن تنتهى حياتهما بطلقة رصاص.

هكذا مع مرور الوقت تعودا اللقاء فى الظلام، وأصبحا بعد أن يمارسا الحب مرة أو مرتين أو عدة مرات إن وصل الشبق إلى مداه يلجآن إلى "العين" للإستحمام. فتدعك العضلات فى ذراعيه، وكتفه، وساقيه وظهره وهو غاطس فى المياه الكبريتية الدافئة لتزيل عنها الإرهاق. ويدعك هو جسمها باللوف والصابون. فى بعض الأحيان يلعبان فى المياه ويرشان بعضهما بالمياه كما يفعل الأطفال. يجففان بعضهما بالمناشف التى وضعاها فى الحفرة مع أشياء أخرى أضافاها إليها حسب الإحتياج. حفرا حفرة أخرى وضعا فيها صندوقاً من الألومنيوم يحتوى على أشعار "حمدان" وكراسات الموسيقى التى سجلت فيها "كريمة" ألحانها.

في إحدى الليالى، وأصابعها تداعب خصلات شعره زحف فيها الشيب أوقف يدها واستدار ليسألها سؤالا أصبح يقلقه. قال:

"كريمة" هل أنت راضية بحياتنا".

"إلى حد كبير...لكن"...

"لكن ماذا ؟"

"أود أن نخرج من هذا المكان".

"مع ذلك صمتت"؟

"أستطيع أن ارحل فى أى وقت لكنى لا أريد أن أذهب أنا وتظل أنت هنا خلف هذه الأسوار".

"ولماذا أبقى إذن ؟"

"هذا هو سؤال طرحته على نفسى ثم طردته من ذهنى".

"لماذا ؟"

"لأننى أخاف من السؤال".

مالت عليه وقبلته. قالت :

"أراك سرحت. ماالذى تفكر فيه ؟"

"أفكر أن الوقت جاء لكى أتخذ قراراً. لقد تأخر أكثر مما يجب وأصبحت أتساءل ما الذى جرى ؟ أين الشاب الذى كنته ؟ هرمت فى هذا المكان. أصابنى الصدأ مثل غيرى من الناس".

"لا يا "حمدان". الآن أدركت ".

سألها فجأة.

"لماذا لم أعد أرى بريق عينيك ؟"

"لأنك قررت أن ترحل عنى"

"هذا طبيعى. فرحيلك أو بقاؤك مسألة تخص حياتك أنت. ثم رحيلك أنت سهل".

"وهل تظن أننى سأتركك تحاول وحدك ؟"

"إذا نجحت ربما أستطيع أن أسافر وأن نلتقى فى بلد آخر".

"أنت تقفز بخيالك بعيداً. الأهم هو كيف ستهرب من هنا دون مساعدة"؟

خطر فى باله. نطقت السؤال الذى كنت أتهرب منه.

"سأفكر فى هذا".

"لكن لدى إقتراح قد يسهل المسألة عليك".

"وما هو ؟"

"أن نهرب سوياً".

لم يرد. فاستطردت :

"أعرف ما تفكر فيه. إننى لست فى أحتياج إليك لأترك هذا المكان فلماذا أخاطر بالهروب معك. إنك أنت المستفيد بينما لو هربت معك سأخاطر بحياتى. وهذا صحيح لكن هذه مسألة أحددها أنا وليس أنت". صمتت لحظة ثم أضافت :

"هكذا أستطيع أن أتزوجك مرة ثانية بأوراق رسمية. أم أنك تريد أن تفلت منى "ياحمدان" ؟!"

رنت ضحكاتها هادئة صافية فى صمت الليل.

*　　*　　*

الفصل الثامن عشر

خرج من باب مكتبه منتصب القامة. على رأسه ارتدى قبعة الضباط وعلى كتفيه لمعت القطع النحاسية. السترة الطويلة تهبط على جسمه كالقفاز. إنتقلت عيناه بحركة بطيئة على الملامح الجامدة للجند. حمل الريح نداء البروجى يتردد فى الصحراء فارتفعت الأيدى فى حركة تحية عسكرية سريعة، ودكت الأحذية الميرى الثقيلة سطح الرمال بصوت مكتوم.

عند الإستراحة هبط من السيارة "اللاندروفر" واختفى فى الداخل فزحفت ببطء مثل الحشرة الدكناء ثم انطلقت كأنها تستعجل الإبتعاد، وبدت على ملامح السائق علامات الإرتياح.

الشتاء السادس منذ أن نقلوه قومنداناً "لمعهد التهذيب والإصلاح". أصبح الزمن كالبحر الممتد بلا أمواج. حتى ساعات المتعة المجنونة التى يترك لها العنان فى الليالى الدامسة الظلام، حتى أحلام المخدر تزحف عليه بالصور الغريبة، والألوان، حتى العينين الزرقاوتين، والأرداف المرتعشة تحت اللحاف، حتى علوم المخابرات يستمدها من الكتب المرصوصة فوق الرفوف ترتفع

عالية قرب الجدران، حتى صوت الكمان يناجيه فى بعض الأوقات، حتى كل هذا أصبح كالرمال بلا رائحة، بلاطعم، بلاقوام. أصبح زحفا بطيئا متكررا للأيام.

هناك فى القاهرة توجد الأنوار، توجد الحياة، توجد متعة المطاردة والإصطياد، وحملات الليل لا يعرف ما الذى قد تصطاده فى الشباك. هناك نشوة الانتصار، والشهرة، والصور فى الجرائد، وأحاديث التليفزيون، والمال يصب فى الحسابات. هناك الأوامر، والسلطة، والبنادق يحركها بإشارة، والخوف يطل من العيون، والرؤوس التى تنحنى أمامه، والصرخات ترتفع من أقفاص الإستجواب.

لكن هنا كل شئ هادئ. هنا الرتابة المميتة. ربما من حسن حظه أنه أبعد فى هذه الفترة بالذات فالبلد على كف عفريت. سيحتاجون إليه عندما تقع الفأس فى الرأس فيستطيع أن يملى شروطه. ما عليه إلا الانتظار. لكن لماذا يساوره القلق ؟ الولد "حمدان"؟ أبيات من الشعر ؟ كأنه كشف جهنمه الخاص. كأنه تقمص شخصية "مصطفى الحناوى" وعاش ظلماتها المختبئة فى الأعماق كالخفاش يرى بالأشعات تحت الحمراء.

صعد السلالم الى غرفة النوم. ترى من أين جاء هذا الرخام الأسبانى البديع ؟ قيل أن الاستراحة أقيمت سكنا لمدير الشركة الفرنسية التى جاءت لحفر الآبار. خلع القبعة والسترة واتجه إلى الحمام. تطلع إلى ملامحه فى المرآة بارتياح. رغم كل ما جرى لم يصبها تغير ما عدا تلك الخطوط السوداء أسفل العينين، وبعض

التجاعيد. إنه جبل. لوكان شخصاً غيره لانهد من حياة الليل التى عاشها. أحيانا تضطرب ضربات قلبه لمدة لحظات.عندما يهبط إلى الوادى فى المرة القادمة سيذهب لاستشارة طبيبه الخاص.

عبر الصالة وخرج من النافذة إلى الشرفة. المائدة معدة للإفطار والزهور تطل برؤوسها أعلى الآنية الكريستال. استنشق الهواء بأنفاس عميقة ومال فوق الحاجز ليفحص الحديقة. لولا "كريمة" لكانت الحياة هنا جحيم. تترك لمساتها الأنثوية على كل الاشياء. ترى لماذا تأخرت اليوم ؟ عندما يعود يجدها تنتظره جالسة على الأريكة تقرأ فى كتاب أو تقلب فى كراسات الموسيقى. ربما جاءتها الدورة الشهرية. فى مثل هذه الأوقات تتلكأ فى السرير. ترى ماذا تفعل فى حياتها الجنسية ؟ إنها تعيش مثل الراهبة فى الدير. ما زال قوامها رفيع لكن.... أخذ يستعيد صورتها أمام عينيه. هناك تغيير، كأن جسمها نضج. نعم كأنه نضج. فقد زواياه الحادة واستدارت خطوطه. أصبح يتحرك بحرية فيها انطلاق. والموسيقى التى يسمعها أحيانا فى الليل. راحت أنغام الشوق القديمة. أذناه المدربتان تلتقطان ألحانا جديدة توحى بالارتواء وتعبر عن صخب الحياة. غريبة. قطب جبينه. أحيانا عندما ينظر فى عينيها يلمح شيئا كاللهب الكسول. ابنته لم تعد فتاة غضة. أصبحت امرأة. فى أعماقه تتحرك إرهاصة شبق عندما يدخل إلى غرفتها صدفة فيلمح قميصا للنوم، أو سروالا ملقى على السرير. تذكره بأمها. كانت علاقتهما غريبة فيها خليط من النفور والانجذاب.

جلس على مقعد من الخيزران ينتظر. تأخرت كثيرا. الساعة التاسعة والنصف ولم تحضر بعد. قام واتجه إلى حجرتها. نقر على الباب فلم يسمع شيئا. فتحه وأطل برأسه. دارت عيناه حول الحجرة. السرير منكوش والأغطية تتدلى أطرافها حتى السجاد كأنها كانت على عجلة من أمرها. على الأريكة حقيبة يد ومجلات. أما هى فلا أثر لها. أغلق الباب ثم جاءه خاطر فعاد. دار بعينيه مرة أخرى. نظراته تفحص كل الأركان. فتح الدولاب الصغير تضع فيه الكمان عندما تأوى إلى الفراش كأنها لا تطمئن إلا إذا ظل إلى جوارها عندما تنام. لم يجد الكمان فى مكانه.

أغلق الباب وهبط إلى الصالة. ضغط على جرس الخدم. بعد لحظة طويلة سمع صوت خف يتحرك فوق البلاط. توقفت الشغالة فى فتحة الباب. المنديل المزخرف يحيط برأسها مطلقا خصلة من الشعر تتدلى على ناحية. استقرت عيناه لحظة على صدرها الناهد ثم سألها.

"أين ستك "كريمة" ؟"

أطلت عيناها إليه فى وجل.

" لا أعرف يابك. لم أرها اليوم."

"أين كنت ؟ ألم تعدى مائدة الإفطار؟"

"نعم أعددتها. ظننت أن الست "كريمة" فى حجرتها ، ولا تريد أن يزعجها أحد "

"أين العسكر الذين ينظفون الأستراحة؟"

"لم يحضروا بعد".

"وحرسها الخاص؟"

"لا أعرف يابك".

نفخ فى ضيق. لوح لها بيد آمرة فاختفت. اتجه الى جهاز اللاسلكى. جاءته خروشة ثم صوت يتردد فى الجهاز بنبرة عالية فيها يقظة مفتعلة.

"تحت أمرك يا فندم. "

عرف الصوت لكنه تجاهل.

"من أنت "؟

"العريف "على عبد الموجود" يافندم "

"يا"على" أين حراس الآنسة "كريمة" ؟"

ساد صمت طويل ثم جاء الرد.

"كنت أظن أنهم فى الاستراحة يا فندم "

"لا.. لايوجد أحد منهم هنا. إبحث الموضوع حالا ورد على "

حمل معه الجهاز وصعد إلى غرفة النوم. إحساس ما يمنعه من خلع ملابسه أو حتى الحذاء ليريح قدميه. أشعل سيجارة ونفث خيطا من الدخان. نظر إلى ساعته. قاربت على الحادية عشر. سمع صوت خروشة فى الجهاز.

"أنا "على عبد الموجود" يا فندم ، بحثت الأمر مع رئيس الحرس فوجدت أن الحراس لم يذهبوا إلى الإستراحة منذ الأمس".

"ولماذا؟"

"قالوا أن الآنسة "كريمة" أبلغتهم أنها لن تغادر الإستراحة وأنه لا داعى لحضورهم فى الصباح".

"هكذا تنفذ الأوامر التى أصدرتها ؟! أطلب من رئيس الإتحاد أن ينتظرنى فى مكتبى فى الساعة الرابعة بعد الظهر واطلب من السائق أن يحضر بسيارتى فوراً. ونبه على كل أفراد القوة أن يكونوا فى وضع الإستعداد".

كان النزلاء موزعين في مختلف أجزاء المعهد عندما سمعوا البروجى يتردد متوتراً ملحاً مثل نداء للقتال. بالتدريج تجمعوا ونظراتهم متجهة إلى البوابة. خرج رئيس الإتحاد من خيمته وشعر رأسه منكوش، ويداه تتعثران وهو يحكم أزرار البنطلون، ومن خلفه هرول المشرف العام، ونائباه أحدهما يرتدى روباً أحمر اللون، والآخر بنطالاً أخضر للتدريب كأنه كان يمارس تمريناته الرياضية. جاءهم صوت الميكروفون.

"كل واحد يلزم خيمته حالاً. لا نريد أحدا فى الصوان أو فى الحوش".

تردد البروجى من جديد بنبرات نحاسية سريعة كأنه يعلن عن هجوم وشيك. انتشر جنزير من حرس الحدود على بعد قليل من السور، وعلى أرض الحوش توقف العسكر فى ثلاث صفوف. توجه إليهم القومندان قائلاً

"كل اتنين خيمة".

تفرق الجنود بخطوة سريعة. أحذيتهم تثير غباراً من الرمل مثل قطيع من الدواب. فى داخل الخيم صارت حركة محمومة أوراق، وكتب، وأجهزة راديو، وصور، ونقود تختفى فى حفر

مبطنة بسرعة البرق. وفى المكتب جلس "مصطفى الحناوى" يدخن فى هدوء.

دخل الجنود فى الخيم وأخذوا يعدون مرة واثنتين، وثلاثة خوفاً من الخطأ. أخيراً إنتهى التعداد ودخل المشرف العام وعلى وجهه علامات الإنتصار. أدى التحية وقال:

"تمام يا فندم. العدد ألفان وخمسمائة وستة وثلاثون."

حملق القومندان فيه طويلاً. ثم قال

"أعد التعداد من جديد".

"أعدناه مرتين يافندم".

"أعده مرة ثالثة".

تردد المشرف العام لحظة. نقاط العرق تلمع على جبينه. كم يبغض هذا الرجل. لا يلين أياً كانت الظروف. ما الذى يجعله مصراً على إثارة زوبعة فى فنجان ؟ أبعدوه إلى هذا المنفى السحيق لكنه ظل كما هو.

"ولكن"... ماتت الجملة على شفتيه. عينان كالخرز الأسود لا تتحركان إنغرستا فى وجهه. أحس برعدة عميقة تخترقه. قال :

"حاضر يافندم".

بدل القومندان مكان قدميه تحت المكتب. أمسك بسجل أرقام التليفونات وفتحه. توقف عند إحدى الصفحات. أخرج نوتة صغيرة من درج المكتب وكتب رقماً فيها ثم أغلق السجل. فتح مجلة البوليس واستغرق فى القراءة. سمع صوت حذاء يحتك

بالأرض الخشبية. رفع رأسه. تأمل وجه المشرف العام أصبح شاحباً. خرج صوته مبحوحاً.

"التمام ناقص واحد يافندم. خيمة ١٩ سرير رقم ٣ "

نظر إليه ملياً ثم سأل :

"اسمه"؟

"مازلنا نبحث في الكشوف".

"ما زلت تبحث في الكشوف والهارب ربما يضع بينك وبينه نصف كيلو متراً في كل دقيقة".

"لن يصل بعيداً يافندم. أين سيذهب في الصحراء ؟ حتى إن كان قد هرب من أول النهار لن يكون بعيداً. ست أو سبع ساعات على قدميه أو حتى على جمل "....

نظر القومندان إليه كأنه يتفقد حشرة. قال

" فعلاً.. ست أو سبع ساعات على قدميه أو حتى على جمل بسيطة ولا داعى للإنزعاج. لكن هناك زاوية ربما لم تفكر فيها. هذا إن كان فى رأسك شئ قادر على التفكير. فما العمل مثلاً إن كان قد هرب منذ الأمس؟"

"منذ.... الأمس؟"

"نعم. بالتحديد منذ ساعة غروب الشمس. فلو كنت مكانه لاخترت هذا الموعد لأستفيد من ظلام الليل. لا يوجد قمر هذه الأيام فنحن إن كنت لا تعرف فى نهاية الشهر العربى".

"فعلاً... فعلاً ياسعادة البيك نحن فى نهاية الشهر العربى".

نظر إليه القومندان فى ضيق.

"ثم الهرب على قدميه أو بالجمل غير مطروح بالمرة. الهارب يعرف أننا فى زمن الطيارة، والهليكوبتر، والإتصالات الإلكترونية".

"أتقصد يا فندم أنه استأجر طائرة أو هيليكوبتر" ؟

نظر إليه وقال:

"ما أصعب أن يحيا الإنسان بين الحمير".

ثم أضاف:

"أطلب لى هذا الرقم فى " نجع حمادى " حالاً. وقبل أن أنسى... فى الخزينة يوجد مظروف مكتوب عليه "سرى للغاية". خذ هذا المفتاح لتفتحها. أخرجه واقرأ التعليمات الموجودة فيه ونفذها بحذافيرها. فاهم" ؟

*   *   *

الفصل التاسع عشر

كانوا قد انتهوا من تناول طعام الغذاء في الصوان الكبير. تفرقوا تاركين عددا قليلا إستغرقوا في لعب النرد، أو كرة الطاولة، أو في الثرثرة، أو النوم. أما الأغلبية فقد آووا إلى خيمهم لنيل قسط من الراحة بينما جلس بعضهم على أبوابها ليلعبوا السيجة.

لم يضرب البروجى هذه المرة. في لحظة معينة إلتقطوا صوت الأحذية على الرمل. رفعوا رؤوسهم وأرهفوا السمع. أطلت من عيونهم نظرات الخوف. أحسوا بالأرض تهتز كأن الزاحفين يعدون بالمئات. سمعوا صوتاً لم يسمعوه من قبل كالرعد الخافت أخذ يتزايد. إلتفتوا حولهم ليجدوا الدنيا وقد أظلمت. مئات من الأجسام تلتف حولهم، تطبق عليهم من كل الجهات. أجسام صفراء تحمل في أيديها دروع وهراوات، وأحذية ترتفع وتنخفض مثل جنازير الدبابات تسعى لسحقهم.

لم يتحرك أحد. التجارب تقول لهم جاء وقت العقاب ولا فائدة من محاولة رده. الشجاع الآن لا يعترض، ولا يصرخ، ولا يقاوم ومهما حدث لا يصدر عنه صوت حتي أنين خافت.

أزاحوهم جانبا كما تفعل العاصفة بالقش أو الحطب، ودخلوا الخيام. ألقوا بكل مافيها إلى الخارج، الأغطية، وألواح الخشب، والملابس، والصنادل، والمناشف، والشيلان، والكتب. صنعوا منها تلا، ثم جمعوهم أمام خيامهم صفوفا، كل خيمة إثنى عشرة رجلا. أمروهم بخلع الملابس. من تردد أمسكوا به ومزقوا ثيابه. أعادوا تنظيم الصفوف بعد أن أصبحت أجسامهم عارية، ثم جاء أفراد الفرق المدربة وضربوهم. ضربوهم في كل جزء من أجسامهم بسن اليد، أو بالقدم، أو الرأس، أو العصي، على الفك، أو الأنف، على العنق أو البطن، على قصبة الساق، أو الركبة، على الخصية، والقضيب.

جاء الليل. الدوريات تسير حولهم، والميكروفون يذيع بصوته الأجوف "من لديه معلومات عن هروب "حمدان محمد عميرة" فليتقدم"، ولكن حتي الصباح لم يتقدم أحد، وبالتدريج نامت الأجسام من الإعياء وساد الصمت لا يسمع فيه سوي صوت التنفس. مرت الساعات دون أن يحدث شيء لكن في لحظة من اللحظات إستيقظ الشاب على صوت غريب، وبحكم العادة إتجهت نظراته ناحية شرق الجنوب. كانت السماء زرقاء صافية كما هى دائما فى فصل الشتاء، فلاحظ فى السماء أشياءا تبدو كالطيور الجارحة يصدر عنها صوت يشبه الفرقعات المتقطعة، فأدرك أنهم بدأوا المطاردة، أن الجريمة تطل بمنقارها القذر.

في ذلك الوقت كان "مصطفي الحناوي" جالسا على شرفة الإستراحه يدخن السيجار الأسود المفضل عنده. سمع

الهيليكوبترات الثلاث وهي تستعد للهبوط فابتسم. كان قد أوفد المشرف العام لاستقبالهم فظل جالسا حيث هو، وبعد قليل وصل قائدهم فقام ورحب به. أجلسه إلى جواره وأخذا يتبادلان الكلام بأصوات هامسة. بين الحين والآخر تدلف الشغالة إلى الشرفة في صمت حاملة أكواب الليمون وأطباق الفاكهة والحلوي. تلقي عليهما نظرات وجلة ثم تنسحب، لكنها استطاعت أن تلتقط عرضا بعض الأسماء التي سمعتها من قبل عندما زارت الواحات مع الست "كريمة" مثل" طريق الأربعين" و "حدود السودان".

لم ير الشاب الهيليكوبترات الثلاث وهي تهبط على الرمال خلف الإستراحة، لكنه لمحها عندما أقلعت واتجهت في خط يتوسط الجنوب والشرق. كان راقدا قرب أحد براميل المياه بعد أن غسل جروحه، وعثر على سروال وقميص ستر بهما عريه، فصار يتخيل "كريمة" و "حمدان" في السيارة الجيب بثوب الأعراب. "حمدان" يقود لمدة ساعات وعندما يشعر بالتعب وبجفونه المثقلة تلح عليه بالرغبة فى النوم تحل "كريمة" مكانه. خلفهما يجلس شاب من البدو إسمه "عبد الله "، أسمر الوجه، مقوس الأنف. وبعد ذلك خانه خياله، ولم يبق له سوي أن يدعو لهما من أعماق قلبه.

في اليوم التالي قبل غروب الشمس كان "مصطفي الحناوي" جالسا خلف قائد الهيلوكبتر الذي أقلع معه. أغلق عينيه ومال إلى الوراء ليريح جسمه. سمع الطيار يقول:

"أنظر يا فندم. سيارة جيب..".

سأل في صوت مبحوح :

"أين. أين؟"

أشار الطيار بأصبعه قائلا:

"هناك.. ناحية الجنوب. إقتربت من الحدود".

"زود السرعة. لم يبق أمامنا وقت. لا نريد أن نتركهما يجتازان الحدود. الليل جاء ولن نعثر عليهما في الظلام".

التفت إليه الطيار في تساؤل :

"عليهما يا فندم"؟

"نعم... رجل. وامرأة".

كانت "كريمة" أول من سمع صوت الهيليكوبتر يختلط بهدير السيارة الجيب. نظرت إلى الخلف فرأت الأعرابي يشير إليها بيده.

مالت على "حمدان" وزعقت :

"لا تنظر وراءك. هناك هيليكوبتر يتبعنا. لم يبق علي الحدود سوي كيلومتر واحد أو أقل".

تجمدت ملامحه.

"أسمعه الآن. لا تخافي. الظلام بدأ يسقط وسنصل قبل أن يستطيعوا الهبوط أمامنا لإيقافنا".

قالت :

"عندي شعور غريب يا "حمدان" كأن عينيه تطلان علينا".

"عينا من"؟

"عينا أبي".

في الهيليكوبتر التفت "مصطفي الحناوي" إلى الوراء يخاطب العريف القابع خلف المدفع. قال :

"أستعد".

تطلع إليه الطيار في قلق. قال:

"أليس من الأفضل أن نهبط أمامهم ونحوطهم. القوة التي معنا تكفي".

قاد الهيليكوبتر في دورة فوق السيارة الجيب وهو يطل من أعلي. رفع أحد الأعراب العقال من على رأسه ولوح في الهواء. لمح شعره طويلا يطير خلفه ويضيء بوهج أحمر في شعاع الشمس الغاربة. قال في توتر.

"المرأة تلوح إلينا يا فندم".

تقلصت المسافة بين الهيليكوبتر والسيارة الجيب إلى عدة أمتار وهي تحلق فوقهما. تطلعت "كريمة" إلى بطنها القبيح كالحشرة الحبلي. لوحت بيدها وهي تصيح بكلمات لم يلتقطها الطيار. مال "مصطفي الحفناوي" إلي الأمام. في لحظة شعر أن عينيه وعينيها تتلاقي ثم تلفت إلى خلفه وقال :

"إضرب".

إنتفضت فجأة كالفرخة المذبوحة وتتدفق منها دم أحمر. لم يلاحظ "حمدان" شيئا. كانت يداه تضغطان على عجلة القيادة والسيارة تقفز كالحصان الجامح ، وهو يحاول أن يخترق الظلال بنظراته. ثم فجأة أحس بشيء كالضوء الباهر، وبصوتها يقول "يا حبيبي وداعا". ثم التف حوله الظلام فلم يعد يري شيئا. في أذنيه

طنين تتخلله نبرات صوتها فيهيأ إليه أنه يسمعها تنطق "حبيبي" مرة أخري وبعدها لم يسمع شيئا.

* * *

لفوا جسميهما في البطاطين، وحملاهما في الهيليكوبتر. تركوا جثة الأعرابي في السيارة الجيب ليحملها السائق إلى الواحة. سلموها في الظلام مثل لصوص المقابر ثم استأنفوا رحلتهم حتي الإستراحة. رفضت أطقم طيارات الهيليكوبتر أن يستريحوا قبل الرحيل ورفضوا المرطبات التي قدمت لهم. أدوا التحية العسكرية في صمت وانصرفوا.

وضعوا جثة "حمدان" في شاحنة حملتها حتي المعهد ثم وضعوها في صندوق من الخشب ، وفي اليوم التالي جاءت طائرة حربية ونقلتها إلى القاهرة حيث كان ينتظرها إثنان من الأقارب توليا نقلها إلى عزبة "الكوادي". وهناك في القبر المبني على رأس الغيط دفنوها إلى جوار أمه وأبيه.

أما "كريمة" فقد أصر أبوها على دفنها في حديقة الإستراحة. لم يحضر الدفن سوي عدد من الجنود. حملوا النعش وأنزلوا الصندوق في القبر المحفور المبطن بالأسمنت. على بعد وقفت امرأة تتبع ما يدور. كانت تبكي في صمت وقد لفت حول وجهها الشاحب منديلا أسود نزعت من أطرافه دوائر الترتر.

ظل "مصطفي الحناوي" واقفا في صمت. تحرك فقط مرتين، مرة ليقص كفن الحرير الأبيض بمقص، ومرة عندما انحنى ليلقي بقبضة من الرمل على جسمها الراقد عند قدميه. بعد ذلك عاد الى

الإستراحة ليجلس على الشرفة. ظل جالسا الى أن غابت الشمس ثم قام وصعد الى غرفته. خلع بزته البوليسية وارتدى جلبابا للنوم ثم نادى على الشغالة. طلب منها أن تعد له كوباً من الشاي وسلة من البرتقال وسكينة وطبقا وضعتها كلها على منضدة صغيرة في الغرفة ثم انسحبت.

شرب كوب الشاي ودخن سيجارا رفيعا داكن اللون. ألقى بعقبها في الحديقة من النافذة وهو يتتبع طرفها المشتعل في الليل الى أن انطفأ ثم جلس فى الظلام مدة طويلة لايتحرك ، وفجأة بدأ يبكي بكاء مفزعا مثل عواء الذئب الجائع. سمعته الشغالة الجالسة في المطبخ فهربت الدماء من جسمها.

في اليوم التالي وصلت طائرة حربية لتنقل الأثاث، والأدوات. بحث عن الكمان لكنه لم يعثر عليه. شحنته الشغالة مع حاجياتها وهى تستقل الطائرة صعدت اليها وجلست الى جوار النافذة. وجهها البيضاوى متشح بالسواد، بالمنديل خلعت منه الترتر الذي كان يتدلى من أطرافه. عندما اقترب منها مساعد الطيار ليتبادل معها الحديث نظرت إليه فتراجع على الفور. كان في عينيها حزن لم ير مثله.

* * *

ظل الشاب يدور حول سور المعهد أو يجلس في ركن وحده أياما متتالية. في ليلة من الليالي الجميلة التي لا يعرفها سوى الذين عاشوا في الصحراء كان راقدا فوق غطاء من الصوف " الميرى" الخشن ويداه متشابكتين خلف رأسه. اقترب منه نزيل

وصل الى المعهد منذ أيام قليلة واستأذنه فى أن يجلس الى جواره. وبينما كان الشاب راقدا على ظهره هيىء إليه أنه يسمع صوت كمان يأتيه من بعيد، ثم يقوى بالتدرج كأنما الريح يحمله اليه فجلس. وصل صوته إليه جميلا، وحيدا متزايد الجمال.

وفي الصباح بعد أن عاد هو وصديقه الجديد من فرقة العجين، واغتسلا تحت صنبور المياه، وارتديا ملابسهما النظيفة، وتناولا طعام الإفطار في الصوان تركه وذهب يبحث عن "المشرف العام". وجده جالسا أمام باب الخيمة مستغرقا في التفكير، وقد لمع شعره الأبيض في الشمس.

جلس الشاب الى جواره وقال:

"جئت إليك لأمر هام".

التفت إليه في صمت ثم سأل:

"ماذا تريد؟"

"أريد ورقا وقلما."

ظهر عليه الارتباك كأنه فوجىء بالطلب. ظل يفكر مدة بدت للشاب طويلة ثم قام ودخل في الخيمة.. عاد ومعه كيس من القماش أعطاه له. فتحه وأخرج منه رزمة أوراق وثلاثة أقلام، فالتفت ليشكره لكنه كان قد دخل في الخيمة وغاب.

* * *

خاتمة

ربمـــا يــبدو مـــن الغريب أن تكون تفاصيل حياة "حمدان" و "كريمة"، وما دار بينهما وصاحب محاولتهما الهروب عبر "طريق الأربعـــين" إلى السودان مسجلة بهذه الدقة. لكن التساؤل يزول إذا مـــا عرفنا أن الشاب، وكان إسمه "يوسف زهران" عاد من المنفى فـــى ربيع سنة ١٩٩٨ وأننى التقيت به. كان له قريب هاجر إلى إيطالـــيا منذ سنين وأصبح صاحب مطعم كبير للأسماك فى مدينة "فينســيا". ونظـــراً لأن البطالة كانت مستشرية عجز الشاب الذى أصـــبح كهلا عن الحصول على أى عمل مناسب فكتب إلى قريبه يســأله إن كان يستطيع أن يساعده على السفر إلى إيطاليا والبحث عن عمل هناك ، ففوجئ بخطاب يقترح عليه أن يحضر لمساعدته فى إدارة المطعم ، ويبدى فيه إستعداده لتسهيل إجراءات الهجرة.

بعد أن استقر به الحال فى "فينسيا" تعرف على امرأة إيطالية تــزوجت من قبل وانفصلت عن زوجها دون أن تنجب منه ، ومع الـــوقت نشـــأت بينهما علاقة حب، وعاشا سوياً دون أن يتزوجا

رسـميا، فالكنيسـة الكاثوليكـية لا تجيز الطلاق مثلها مثل القبط الأورثوذوكس فى مصر.

فى إحدى الليالى كنت أتناول طعام العشاء فى المطعم فاقترب منـى رجـل وسألنى. "هل أنت مصرى؟" رفعت رأسى ونظرت إلـيه. طويل القامة منحنى قليلاً، أنفه مستقيم وشعره غزير خطه الشـيب. لكـن ما لفت انتباهى هما عينيه ، سوداوين فيهما بريق تشـبهان عينـى المرأة التى إرتبطت بها منذ خرجت من السجن سألنى :

"هل أنت الدكتور "شريف حتاتة" ؟"

"نعم. أنا".

"هل تسمح لى أن أجلس معك قليلاً".

قلت :

"أهلاً وسهلاً تفضل" فجلس.

"أنا إسمى "يوسف زهران". وسمعت من صاحب المطعم أنك روائى".

"هذا صحيح".

قال وهو ينظر إلى لوحة معلقة على الجدار كأنه سرح.

"عـندى قصة عشتها وأريد أن أحكيها لك فربما أوحت إليك بكتابة شئ".

قلت

"ولما لا تكتبها أنت؟"

"حاولت ولم أنجح".

"حاول مرة آخرى".

"ليس عندى وقت لأعيد المحاولة".

"لماذا؟"

"عندى مرض سيقضى علىّ قريباً.

لم أجد ما أقوله. فصمتت.

قال :

"متى ستسافر؟"

"بعد أربعة أيام".

صمت قليلاً ثم قال :

"يمكن أن نبدأ باكر صباحاً".

ترددت. ظل جالساً ينظر إلى. لكن شيئاً فيه، فى نظرة عينيه حسم الأمر. إحساس بأن أمامى إنسان غير عادى سيموت قريباً ويجب أن ألبى ما يريده منى، وربما شعور الكاتب بأنه سيسمع منه ما يستحق أن يستمع إليه.

بعد اليوم الأول أجلت موعد السفر أسبوعاً بقيت أثناءه فى "فينيسيا". كنت أقضى الساعات الطويلة أسمع منه، وأكتب فى كراسة ما زلت محتفظاً بها.

عرفت منه أنه بعد أن استقر فى "فينيسيا" إنكب على مهمة كان قد قرر أن يقوم بها وهى أن يكتب قصة "حمدان وكريمة" ولهذا الغرض كان يعود إلى مصر فى الأجازة ليجمع بعض التفاصيل عن حياة كل منهما، فزار عزبة "الكوادى" واتصل بمن بقى من أهل "حمدان" وجيرانه على قيد الحياة، وسافر إلى "طنطا

" ليبحث عن زملاء كانوا معه فى الدراسة، وفى القاهرة تمكن من مقابلة موظف على المعاش كان يعمل معه فى معهد الآثار. وكذلك بالنسبة إلى "كريمة" ذهب إلى "أكاديمية الفنون"، وتتبع مسارها فى الفرقة التى كانت تعزف فيها على الكمان، وبحث عن جيرانها عند ترعة المريوطية، وحصل على إذن بالاطلاع على بعض وثائق وزارة الداخلية.

ومن بين الذين اهتم بهم الشغالة التى كانت تعمل فى الإستراحة إعتقادا منه أنها ربما رأت مالم يره غيرها. فسافر إلى "شبين الكوم" وظل يبحث عنها حتى اهتدى إلى بيتها أعلى ورشة النجارة المملوكة لزوجها. وجدها امرأة بيضاء ممتلئة الجسم على وجهها مسحة من جمال زالت أغلب معالمه من الخلفة، والعمل الشاق، فتمكن من أن يقضى معها بعض الوقت فى حضور زوجها وأن يدون إجاباتها على الأسئلة التى أعدها من قبل ، فاتضح أن الشغالة "رقية عبد اللطيف الضبع" ساعدت "كريمة وحمدان" فى كثير من مراحل علاقتهما ببعض ، أنها كانت تحرسهما طوال الليل عندما كانا يلتقيان بالقرب من البئر حتى تنبههما إلى أى خطر يتهددهما. هكذا شاهدت كثيراً مما كان يجرى بينهما.

لم يبد عليها أى حرج وهى تصف لى ما كانت تراه ، تضحك، وتبكى كأنها تحيا ماجرى من جديد. وعندما وصلت إلى دورها فى ترتيبات الهرب إختنقت أنفاسها كأنها تعيش رهبة اللحظات التى عاشتها من قبل.

بعـــد أن انتهى "يوسف زهران" من الحكى سألته عن أشعار "حمـــدان"، والألحـــان التى ألفتها "كريمة" ، فقال أنه جمع منها ما أســتطاع، وأنـــه اتفق على نشرهما فى إيطاليا حيث أصبحت له علاقـــات، كما اتفق مع صديقته الإيطالية على متابعة النشر إذا ما عجـــز عن إتمامه ، فطلبت منه إرسالها إلى عند النشر وأعطيته عنوانى فى مصر.

وفـــى اللـــيلة الســابقة علـــى سفرى دعانى على العشاء فى المطعـــم، وأثناء تبادل الكلام، وكان فيه قدر من الحزن سألته إن كـــان يستطيع أن يعطينى بعض الأشعار التى كتبها "حمدان" عن المرأة التى أحبها ، فقال لى أن الصفحة الأولى من "الديوان" الذى سينشـــره عنوانها "كريمة" ظلت بيضاء وأن "حمدان" كتب فيها ما يلى :

"مأســـاة الشاعر الدائمة هو ذلك الإحساس بالعجز في التعبير عما يحسه. وفيما يخص "كريمة" المرأة التى أحببتها كان شعورى بالعجز غير محتمل. لذلك آثرت الصمت".

شريف حتاتة

١٥ يونيو ٢٠٠٥

مؤلفات شريف حتاته

١ – الروايات:

* العين ذات الجفن المعدني، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٤
دار الثقافة الجديدة ، مصر ١٩٨٣
* الهزيمة، دار الطليعة، ١٩٧٨
* الشبكة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١
دار الثقافة الجديدة ، مصر ١٩٩٠
* قصة حب عصرية، دار الآداب ، بيروت ١٩٨٤
دار الموقف العربي ، مصر ١٩٨٣
* الرئيسة دار المستقبل العربي ، مصر ١٩٨٦
* نبض الأشياء الضائعة دار الآداب ، بيروت ٢٠٠١
* عمق البحر، دار ميريت ، مصر ٢٠٠٢
* عطر البرتقال الأخضر، دار الهلال ، مصر ٢٠٠٦

٢ – سيرة ذاتية

* النوافذ المفتوحة، الجزء الأول، دار نشر مدبولي، ١٩٩٣
الجــزء الثانـــي دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٥ ، الجزء الثالث دار النهر، ١٩٩٨
* النوافذ المفتوحة، مُجمعة في جزء واحد ، دار ميريت ٢٠٠٦

* تجربتي في الإبداع دار الثقافة الجديدة، ٢٠٠٠

٣- الرحلات :

*رحلتي إلى آسيا دار المعارف (إقرأ)، مصر ١٩٧٤

*طريق الملح والحب دار المستقبل العربي، مصر ١٩٨٣

٤- دراسات :

* الصحة والتنمية، دار المعارف ، مصر ١٩٦٨

* فكر جديد في الماركسية، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧

* العولمة والإسلام السياسي، كتاب الأهالي، ١٩٩٩

* فكر اليسار وعولمة رأس المال، دار العالم الثالث، ٢٠٠٦

تجليات أدبية

لا أعرف إن كانت هذه رواية أم مسرحية أم أحلام جاءت إلى الكاتب «شريف حتاتة» وهو فى معتقل الواحات. لذلك اتفقت معه على ألا ينشر منها شىء على ظهر الغلاف لشعورنا أنها لا تصلح للقارئ الذى يبحث عن تحديد الأشياء، أو عن تعليق ربما يكون زائفا..

الناشر



تصميم الغلاف: أحمد اللباد

ميريت